جامعة طنطا
كلية الآداب

الراغب الأصفهانى
ومنهجه فى كتاب المفردات

دكتور
عباس محمد عبد الحميد

جامعة طنطا
كلية الآداب

الراغب الأصفهانى
ومنهجه فى كتاب المفردات

دكتور
عباس محمد عبد الحميد

اهداء

الى استاذى العزيز

الاستاذ الدكتور / حسن ظاظا

تحية وفاء وعرفان بالجميل ، ودعوة الى الله ان

يرد غربتك التى طالت

لتعود لنا كما كنا محبة ورفقة .....

المدخـــــل

ما كدت أتم دراستي الجامعية، حتى اتجهت الى متابعة الدراسة العليا ابتغـــاء الإسهام في تجلية بعض الجوانب العلمية التي أغفلها الدارسون قديما والتي تتمثل فـي بعض الشخصيات التي صنعت تاريخنا العلمي والثقافي عامة، وأرخت في بعض جوانـــب ثقافتنا وتراثنا أرساخا ما زالت أمامنا الى اليوم، نتناولها، ونرجع اليها، دون أن نهتـــم باعطائها حقها من الدراسة التي لا قاها أمثالها من الأعلام وربما دونا منها .

وكان أن دفعني الى دراسة الراغب الاصفهاني ان هذا الرجل استطاع فيما أقـــدر أن يدرك الأصول التي نهض عليها الاختلاف بين المذاهب والفرق الدينية التي اتجـــه فيها أصحابها إلى النص القرآني يتخذون منه سندا لما يذهبون اليه ودعامة تؤصـــل مذاهبهم، وكأنها جميعها مما يمكن أن يدل عليه النص القرآني . كذلك استطاع الراغـــب أن يشرك العقل في فهم النصوص الدينية والاستفادة بكل طاقاتها، فترك بذلك دراســـة رفيعة المستوى حتى كأنه سبق عصره في وقت تشعبت فيه المسالك والاتجاهات والتنـــوع، فدرس الاصول وانقسام أهله الى متكلمين وغير متكلمين - كما أنه عاصر حركات الصوفيـــة التي أضافت إلى الألفاظ القرآنية دلالات بعيدة عن دلالاتها الأصلية، لا يفهمها الا من سار في تيارهم، وأحيانا بتقاليدهم واختلاف الناس عليها من منكر لها ومن مؤيد، والراغـــب وسط هذا الخضم ناقدا لما يراه مدافعا عن النص الديني مؤيدا لما يراه قـــد أصاب، شارحا دالا على موطنه، وقد ظهر هذا واضحا في كل مؤلفاته

والذي زاد من قيمة أعمال الراغب في نظرنا، هو بعده عن اي اتجاه سياسي، فقـــد عاش طوال حياته لم يرتبط بأي اتجاه سواء أكان دينيا أم سياسيا في مؤلفاته، بل كـــان في كثير من الأحيان يحاول جاهدا اخفاء ما بنفسه من أحاسيس لا يصرح بها وان كـــان

يكنى عنها وعلى هذا أهمله المؤرخون ولم يؤرخوا له . (١)

وجانب هذا/فإن الرجل كذلك لم يكن من رجال الدولة أو مشايعا لأمير أو نديما له (٢)، كما كان الرجال في ذلك الوقت يوزنون بضخامة أعمالهم من ناحية/وارتباطهم الديني أو السياسي من ناحية أخرى ،فكان مؤرخو كل فئة تقوم بما نسميه اليوم بأعمال الدعاية ،أما بالنسبة للراغب فقد اختلف الأمر عليه/فلم يجد من يعنى بأعماله ويقوم بنشرها والترويج لها من مؤرخي الفرق/فبقي وحيدا في الميدان بعد أن تحير المؤرخون في أمره/فنسبوه مرة الى الاعتزال/ومرة الى الشيعة (٣) ومرة الى السنة/ووسط هذا الخلاف/أمام هواه لأهل البيت المكنى عنه في مؤلفاته وان لم يصرح به - تلقفه علماء الشيعة فعدوه شيعيا وأرخوا له في كتبهم وعدوه من حكماء الشيعة . (٤)

بهذا الاختلاف عليه/ومع عزوفه عن المشاركة في الأحداث السياسية والإجتماعية ، أهملت مؤلفاته ،فلم تلق أي نوع من الدراسة/وترك الأمر كل ينظر على هواه ،فمن كان سنيا وجد بغيته/ومن كان شيعيا وجد هواه - . . . وبهذا استطاعت بعض مؤلفاته أن تشق الطريق وتصل الى النار كمؤلفات علمية فقط (٥) ومادة يحتاج اليها الدارسون ، وأصبحت كتبه علما عليه فكان يطلق عليها اسمه مثل : مفردات غريب القرآن أصبح يطلق عليه مفردات الراغب ،وكتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء اصبح يسمى محاضرات الراغب ،وكذلك كتاب الأخلاق الذي اصبح يعرف باسم اخلاق الراغب (٦)

والواقع أن مشكلة الاختلاف بين أصحاب المذاهب سواء أكانت مذاهب في الاعتقاد كما في التشريع العملي التطبيقي المثل في الحركة الفقهية على اختلاف مسالك أصحابها فيها/تعتمد أصلا على اللغة وعلى ما أصابها من تطور دلالي عبر العصور المختلفة

---

١ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٨
٢ - نفس المصدر السابق
٣ - أعيان الشيعة/العاملي ،ص ٢٢٠
٤ - نفس المصدر السابق
٥ - دائرة المعارف الاسلامية/مادة راغب
٦ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ،ص ٢٧١

التي مرت بها الحياة العربية/اذ كانت هذه اللغة تمتاز بتاريخها الطويل الذى عاصر حضارات وخالط ثقافات وتكلمت بها أجناس مختلفة في الفكر والثقافة/ومن هنا أصاب ألفاظها كثير من التطور في دلالاتها . واذا كانت المعاجم العربية تحاول جهدها أن تضع أيدينا على مسالك هذا التطور ومذاهبه فانها لم تستطع ان تلحظ ذلك الجانب الهام الذى يبين التطور للدارسين وما يصدره من أحكام على هذا التاريخ ،ذلك أن هذه المعاجم اختلفت باختلاف ثقافات اصحابها من لغوية ودينية وسواهما/ولعل ذلك كان السبب في هذا الاضطراب الذى ساد حياة هذه المعاجم/والذى وقف سدا بين الباحث عن التطور الدلالى وبين اللغة ،فهذه المعاجم التى حفل بها تاريخ اللغة العربية لم تحو كل اللغة/ذلك أن هؤلاء الصنفين لم يقوموا بجمع كل مفردات اللغة بل كانوا يجمعون الفصيح منها، فكان من اثر هذا أن ضيقوا على أنفسهم المنافذ والمسالك في أخذ اللغة وتلقيها الا من تتوافر فيهم شروط الغلو في الاعراب(١) ،فضيعوا بذلك فرصا عديدة على باحثى اللغة المحدثين/أهمها فرصة عمل المعجم اللغوى التاريخي الذى هو أهم مميزاته أن يكون حاويا كل الكلمات المتداولة في اللغة حيث أن لها حقوقا متساوية فيها (٢) .

وقد واجه أ ـ فيشر هذا حين تصدى لعمل المعجم اللغوى التاريخي الذى يجمع ألفاظ اللغة ويؤرخ لها ويكشف عن خطى التطور التى مرت بها/فيقول في المقدمة (٣) (ان النقص الهام في المعجمات التى صنفها العرب يرجع الى ان مصنفيها ما كانوا يجمعون كل مفردات اللغة العربية بل كانوا يجمعون الفصيح منها فقط وينتهى الكمال لمعجم عصرى لن يكون معجما تاريخيا) . ويسترسل فشر بعد هذا فيضع أساس هذا فيقول (ويجب أن يحوى المعجم التاريخي كل كلمة تداولت في اللغة فان جميع الكلمات

---

١ ـ فقه اللغة/صبحى الصالح
٢ ـ المعجم اللغوى التاريخي /أ ـ فشر ص ٧
٣ ـ نفس المصدر السابق

المتداولة في لغة ما لها حقوق متساوية فيها وفي ان تعرض وتستوضح أدوارهـــــا التاريخية في معجماتها)ولكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظـــر هذه)إذ أنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل تقتصر على ايضاح الاتجـاه النموذجي لها)أعني أن مصنفيها إنما أرادوا التفرقة الدقيقة بين الفصيح من العربيـــة وغير الفصيح وذلك بوضع قانون للإستعمال الصحيح للكلمات ويمثل هذا الاتجاه دون شك على احساس لغوي دقيق عند اللغويين ولكنه عاقه القوة الحيوية الدافعة في اللغة عـــن التقدم والتوسع .

والذي يجب اللفت اليه)أن التاريخية التي يبغي تطبيقها على المعجم التاريخـــي) لا تكاد تطبق على كل ألفاظ اللغة اللهم الا ما كان شائع الاستعمال)أو بعبارة أدق مـــا يمكن أن يطلق عليه لفظ الفصيح . وفي حين يتهم أصحاب المعاجم بأنهم لم يعنـــوا إلا بالفصيح دون سواه من ألفاظ اللغة)لم يستند إلى استقراء واسع أصدر به هذا الحكم فان ما ذكره عن الخليل في معجم العين وهو أول معجم لغوي يدل على أن فكـــرة الإستقراء كانت تسيطر على أصحاب المعاجم)بدليل أنهم اتبعوا منهجا رياضيا يمكن عـن طريقه هذا الاستقراء)وإن فاتهم شيء من هذه الألفاظ فاننا يرجع الى أن تلك الألفـاظ لم يصل اليها علمهم بها فقد تداركها الذين جاءوا بعد الخليل من أمثال ابن دريـد وابن سيده وابن برى وصاحب اللسان وسواهم من المعجميين .

ومسألة الفصيح من اللغة هذه شغلت العرب أمدا طويلا)إذ أنهم لم يكونوا علـــى اتفاق في اعتبار ما هو فصيح في اللغة وان اتفقوا على أنه الشائع الاستعمال والـــذي يمكن أن يستشهد به في علوم الأدب . وقد جانب فيشر الصواب حين حدد مواطـــن الاستشهاد بثلاثة أنواع : (١)

١ ـ القرآن الكريم باعتباره كلام الله تعالى .

٢ ـ الحديث الشريف باعتباره كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ كلام فصحاء العرب المنظوم وغير المنظوم ثم الأمثال وذلك حتى نهاية القرن الأول .

---

١ ـ المعجم اللغوي التاريخي /أ . فشر ص ٧

فهذا الترتيب الذى يذكره فشر سنتدلا أو مقررا ان مصادر اللغة ثلاث: أولها القرآن ثم الحديث ثم كلام العرب ليس بهذا الترتيب فان فصحاء العرب أسبق من نزول القرآن كذلك فان الشروط التى وضعها أصحاب القراءة جعلوا فيها موافقة القرآن للعربية ولو بوجه، اذا فالعربية هى الأصل الذى يدل عليه القول فى لغوية القرآن وتفسيره، ومن هنا شغل العرب أنفسهم بتحديد القبائل التى يرجع إليها فى تحقيق القول فى عربيته، وقد أوفر القول فى هذا الطبرى فى مقدمة التفسير حين أخذ فى شرح الحديث المشهور (نزل القرآن على سبعة أحرف) . . . أما عن الاستشهاد بالحديث فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا وذلك لجواز روايته بالمعنى .

والذى نلاحظه فى هذا المجال هو التطور التاريخى لكلمة " فصيح " وفهم العرب لها وتحديدهم لدلالاتها .ففى الجاهلية كان الفصيح هو اللغة التى يفهمها الناس جميعا ولا يظهر فيها أثر اللهجات الخاصة أو التى تستخدم فى تأدية الاغراض اليومية) وقد كان هذا واضحا فيما أنشد وقيل بسوق عكاظ، فقد كان الشاعر يأتى الى هذا المكان ناسيا لهجاته ناظما أو ناثرا بتلك اللغة التى كان الجميع يتكلمون بها والتى أطلق عليها بعض الدارسين المحدثين " اللغة المثالية " وهى اللغة التى تعارف الجميع عليها (١) ،كذلك كان من صفات الفصيح أن يكون خاليا من اللحن الذى كان أمرا يعيب العربى ويؤخذ عليه ، وبعد الإسلام كان الفصيح هو ما جاء به العربى الذى عاش بعيدا عن المخالطة والتأثير) والذى نلاحظه فى تلك الفترة هو أن التأثر بالقرآن من الناحية اللغوية لم يكن واضحا تمام الوضوح وبعد أن تقدمت الحياة الإجتماعية وازداد العمران وتخالطت الثقافات نرى أن العلماء قد اتجهوا بالفصيح اتجاها آخر فكانوا يرون أن الفصيح له شقان :

---

١ - فقه اللغة/د . على عبد الواحد ،ص ٨٦

١ ـ كثرة استعمال العرب للكلمة ويعنون هنا بالعرب الذين يوثق في عربيتهم .

٢ ـ خلوها من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس اللغوى .

كذلك أخذ بهم الغلو مأخذا كبيرا حين حددوا القبائل التى يؤخذ منها ويستشهد بكلامها، فلقد أجمع معظم العلماء على أن قريشا هى أفصح القبائل اعتمادا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال "انا أفصح العرب بيد أنى من قريش" وذلك على أنه تربى عند بنى سعد من أخواله وأنه أيضا من قريش لذلك نرى ابن فارس فى كتابه "فقه اللغة" (١) (أخبرنى أبوالحسن أحمد بن محمد مولى بنى هاشم بقزوين، قال حدثنا أبوالحسن محمد بن عامر الحشكى قال : حدثنا اسماعيل بن أبى عبيد الله قال : أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وولاة بيته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم وكانت قريش على فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم وفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى انك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة) كذلك كان ثعلب يرى أن لغة قريش قد خلت من كل هذه العيوب التى ظهرت فى لهجات القبائل العربية (٢) وأيضا الفارابى فى كتابه المسمى "الالفاظ والحروف" ولا يخرج ما قاله عن هذا (٣) (وكانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس والذهن

---

١ ـ المزهر/السيوطى جـ١ ، ص ٢١٠

٢ ـ المزهر /السيوطى جـ١ ص ٢١١

٣ ـ نفس المصدر

عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فان هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا من سكان البرارى من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الهند المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم بالذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أنصار العرب) .

وقد قام الزركشى فى كتابه "البحر والمحيط" بجمع شرائط لزوم اللغة (١) قال أبوالفضل بن عبدان فى شرائط الأحكام ؛وتبعه الجيلى فى الاعجاز :

لا تلزم اللغة الا بخمس شرائط :-

أحدها : ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل .

والثانى : عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم فى الشرعيات .

والثالث : أن يكون النقل عمن قوله حجة فى أصل اللغة كالعرب العاربة مثل قحطان ومعد وعدنان فأما اذا نقلوا عمن بعدهم بعد فساد لسانهم واختلاف المولدين فلا .

قال الزركشى ووقع فى كلام الزمخشرى وغيره الاستشهاد بشعر أبى تمام بل فى الايضاح للفارسى ووجه بأن الاستشهاد بتقرير النقلة كلامهم وانه لم يخرج عن قوانين العرب .

---

١ - المزهر/السيوطى جـ ١ ص ٥٨

وقال ابن جني : يستشهد بشعر المولدين في المعاني كما يستشهد بشعر العرب في الألفاظ .

والرابع : أن يكون الناقل قد سمع منهم حسا وأما بغيره فلا .

والخامس : أن يسمع من الناقل حسا .

ورغم هذا التعنت والغلو فانهم لم يفطنوا الى الفروق الواضحة في الدلالات والترتيبات والآثار التي تتركها البيئة في تحديد وفهم الألفاظ) ولا ريب في أن ذلك يرجع في المقام الأول الى ضعف الخيال عند العربي وعدم قدرته على ادراك هذا) فهو الذي عاش على فطرته حاصرا نفسه داخل جزيرته متجاهلا أن اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية وأداة فكر وارتقاء وانها في مسلكها الاجتماعي الذي تسلكه داخل قطاعات المجتمع المختلفة تحدد مقاييسها ومعايير استعمالها كرموز للدلالة على المجتمع(١) فاللغة لا تصل ولا تنتشر بين الناس ويصبح متعارفا عليها ويؤخذ منها ويضاف اليها الا بعد أن تمر بثلاثة مراحل :

١ - مرحلة النشوء والارتقاء وفيها تكون اللغة بسيطة وقليلة وغير متصرفة أي جامدة لا تتغير بنية كلماتها وهذه المرحلة الهامة هي التي اختلف عليها العلماء اختلافا كبيرا من اعتبرأنه اللغة الحاكم الام) ومن جعل أن الانسان هو منشيء اللغة اكتسبها بطريق الصادفة أو التشيل حيث كانت أصواتا مبهمة لا هدف لها ثم تصادف أن نطق بها أثناء حدث من الأحداث(٢) فارتبطت به وهو ما يطلق عليه بعض العلماء بمرحلة الرمز . وكان هذا هو الداعي لاطلاق الرمز أو الكلمة على أكثر من معنى ويرى جسبرسون أن كلمات اللغة تزداد مع الأيام ايحاءا للدلالات وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من تلك الرمزية حتى يأتي وقت تصبح فيه الصلة أدق وأوثق بين اللفظ ودلالته .

---

١ - فقه اللغة/صبحي الصالح ص٤

٢ - دلالة الألفاظ /ابراهيم أنيس ص ٤٠

٢ ـ المرحلة الثانية وهى مرحلة متأخرة عن الأولى فى حياة الانسان وفيها تكون اللغة أداة وصل تتاز بالسوابق واللواحق كما تتاز أيضا بقدرتها التعبيرية وسايرة أطوار الحياة ولكن الى أمد محدود .

٣ ـ المرحلة الثالثة وهى المرحلة التحليلية والتى تمثل اللغة نضجا راقيا وفيها تتخذ الألفاظ شكلها النهائى وتتحدد دلالات كلماتها ومثل هذه المرحلة فى اللغة العربية القرآن الكريم .

ولقد تناول العرب هذه المرحلة الأخيرة من اللغة بالدراسة والتحليل

الى تلك المرحلة السابقة وهى التى نقدرها بالشعر الجاهلى ولكنهم ضيقوا استخدامها وقصروه على فهم القرآن وغريبه وهذا الابهام والغريب الذى فى القرآن ليس راجعا كله الى صعوبة فى اللغة أو تعطيل فيها وانما مرجعه الى أمرين :

١ ـ أن القرآن الكريم وقد نزل مخاطبا كل العرب فقد استحدث دلالات جديدة للكلمات تناسب بلاغته واعجازه ومغايرة فى معظم الأحيان لما قد عرفه العرب من قبل .

٢ ـ أن بعض ألفاظه كانت مرتبطة ببعض العرويات القديمة التى تغيرها ولا سبيل الى معرفة دلالاتها الا بها .

وقد تنبه ابن عباس الى هذا الأمر وفطن له فأضاف الى عملية التفسير العنصر اللغوى الذى يقرب دلالة اللفظ الى الذهن ويساعده فى فهم التركيب وكان ذلك العنصر الذى أخذه هو الشعر الجاهلى فكان اذا ما سأله أحد عن معنى من تراكيب القرآن رد عليه أما سمعتم الشاعر يقول كذا وينشد البيت(١) وأثبت ابن سعد هذا فى طبقاته ونقل عنه الطبرى أنه قال "اذا تعاجم شئ من القرآن فنظروا فى الشعر فان الشعر عربى " . كذلك كان يبحث عن دلالات الألفاظ المبهمة فى اللغات العبرية والسريانية والآرامية .

---

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن / السيوطى جـ ١ ص ١٢١

والواقع أن ابن عباس بهذه اللفتات اللغوية التي تنبئ عن فهم واع قد حدد دون أن يلتفت اليه العلماء منهجا من أهم مناهج علم اللغة وهو منهج البحث اللغوى التاريخى المقارن فقد اتصل تفسير القرآن عند ابن عباس بعناصر عديدة اعتمد عليها كان أهمها :

١ - عنصر أسباب النزول .

٢ - عنصر فهم القرآن .

٣ - الاستشهاد بالشعر .

٤ - مروياته عن الأخبار التي لم تذكر في القرآن أو الحديث .

٥ - البحث عن معاني بعض الكلمات في اللغات الشقيقة المجاورة .

وبهذا نرى أنه بحسه الدقيق وفطنته الواعية قد سبق عصره في وضع مبادئ الدراسات اللغوية عامة وفقه اللغة بصفة خاصة وقد أدرك ذلك الترابط وتلك الصلة التي بين اللغات المتجاورة والتي أثرت في بعضها البعض .

ولا يختلف منهج فشر وهو أحد الأعمدة الذين تصدوا لعمل المعجم اللغوى التاريخى عما جاء به ابن عباس فنراه يقول في المقدمة : (١)

يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة - بلا استثناء وجدت في اللغة وان تعرض على حسب وجهات النظر السبع التالية : التاريخية - الاشتقاقية - التصريفية - التعبيرية - النحوية - البيانية - والاسلوبية ..... والأهمية العظمى مهما تكن الحال هي الموضع الذى وردت فيه الكلمة في آداب اللغة لأول مرة ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن كل كلمة قد بقيت مدة طويلة في أفواه الناس قبل أن تجد لها مكانا في الكتب وكان يجب أن يعنى ببدأ تطور الكلمة ، كذلك من واجب اللغوى العناية بآخر تطورها وهل لاقت موتا في الزمن القديم أو الحديث أو اندثر معنى من معانيها واستعير عنها بمرادف لها

---

١ - المعجم اللغوى التاريخى /أ . فشر ص ٧

ويجب أن تقيد على حسب الترتيب التاريخي بين أقدم الشواهد وأحدثها - المواضع التي يتبين منها تقدم أوضح صورة من التطور التاريخي للكلمة ولكن هذه الطريقة تتطلب حتما من القارئ أن يكون ملما من قبل بتاريخ آداب اللغة العربية، واقفا على تاريخ الناظمين والناثرين من أبنائها وبذا يكون في مقدوره أن يدرك النتائج اللازمة في التطور التاريخي للكلمة ومعانيها ويحسن حين الاستشهاد بمؤلف أو كتاب غير معروف أن يذكر عصره باختصار.

ومن هذا نرى كيف استطاع ابن عباس بعبقريته اللغوية تلك أن يدرك الدلالة التاريخية للكلمة وتطورها وتحديد مدارجها، تلك التي تكلم عنها فشر فيما سبق ومما لا شك فيه أن تلك الدلالة التاريخية للكلمة وتطورها كانت عونا للدراسات الإسلامية المختلفة التي عكف على النمر الديني دراسة له - معسرة مستنبطة ما فيه من أحكام وشرائع من دلالات ألفاظه وما يوحيه باطنه ويعلنه ظاهره / والواقع أن هذه كانت أولى الدراسات اللغوية ولا نفرق هنا بين الدراسات اللغوية الخالصة والدراسات اللغوية القرآنية، اذ لم يكن هناك اختلاف بينهما فقد قامت الدراسات اللغوية معتمدة على القرآن بقصد خدمته واجتهادا للتطبيق الصحيح للشرع ويجب أن ينظر إلى الدراسات اللغوية في نشأتها من هذا الجانب اذ أنه المثل الحقيقي لها الموضح لأبعادها فيما بعد .

ويخطئ من يذهب لغير هذا اذ حاول بعض الباحثين إرجاع النشأة اللغوية إلى الأدب العربي والنعرة الدينية (١) غير ملتفتين الى الناحية الدينية الا عرضا فالدكتور حسين نصار في كتابه "المعاجم العربية" حاول أن يعزى الاهتمام الأكبر للنهضة اللغوية الى محاولة العرب المحافظة على الجنس نقيا بعدم التزاوج بين الأعراب والموالي وكذلك عدم الاختلاط والمحافظة على التراث واللغة من ظهور اللحن وقدم لهذا بمقدمة طويلة تناول فيها الجانب الاجتماعي باسهاب فيقول (٢) (في ظل هذه النظرة بدأ الاهتمام باللغة العربية وتنقيتها وتخليصها من شوائب اللحن واقامة القواعد لفصاحتها واعرابها!

---

١ - المعجم العربي /د. حسين نصار ص ٢٠ ج ١
٢ - نفس المصدر .

وتصاريفها فانه اذا كان لكل أمة ميزة اشتهرت بها فميزة العرب وشهرتهم فى لغتهم) . ثم يقول بعد ذلك (ولما كانت هذه نظرة العرب الى لغتهم ومحاولتهم التوفيق فيها عنوا بتهيئة الظروف لأبنائهم كى يتيسر لهم السيطرة على اللغة والامتياز فيها)، ويبدو أيضا أن الدكتور حسين نصار كان متأثرا بكتابات السلف عن الخلاف بين العرب والعجم فى قضية اللفظ والمعنى اذ لا معنى لتاريخ حياة اللغة من الجانب الاجتماعى للحياة فقط أو إعطائه الإهتمام الأكبر اذ لم يتضح هذا الا فى القرن الرابع والخامس . فالمعروف أن العرب قد تزاوجوا من الأعاجم منذ السنين الأولى للفتح العربى منهم الحسين بن على عليه السلام وابن أبى بكر ثم بعد ذلك فى العصر العباسى كان سيبويه أول من ألف فى اللغة . والمعروف أيضا أن الدراسات الأولى للغة كانت كلها موجهة الى القرآن وليس الى الأدب والشعر كما جاء فى مقدمة الدكتور حسين نصار، فلم يكونا الا وسيلتين يستعان بهما على شرح النصوص والوقوف على دلالات بعض الألفاظ التى أخذت طورا جديدا فى القرآن - وهو نفسه يقرر هذا حين يرد على المرحوم أحمد أمين (فقد كان أول الأبحاث اللغوية يدور حول الألفاظ القرآنية أو ما عرف بعد باسم كتاب غريب القرآن ولغاته وما شابه ذلك، تضيف الى ذلك أن بلوغ الخليل الى فكرة وضع معجم كان للقول بأن الأبحاث اللغوية وصلت الى مرحلة المعاجم) وفى هذا تناقض مع ما جاء فى هذه المقدمة من أن المحافظة على الشعر والأدب العربى هى السبب فى نشأة الدراسات اللغوية فالدراسة اللغوية الخاصة بالشعر نشأت متأخرة جدا عن الدراسة اللغوية القرآنية.

ونحن نستطيع أن نلحظ بشئ من اليسر أن أولى الدراسات اللغوية التى ظهرت هى الدراسة الخاصة بالقراءات والمبهمات والغريب الذى جاء فى القرآن وليس الغريب أو المبهم الذى جاء فى الشعر وذلك لحاجة العربى اليه، أما بالنسبة للمعجم فان الحاجة كانت

أمر لفهم وقراءة النص الديني، وكانت هذه هامة جدا بالنسبة لهم وأعانهم على ذلـــــك حسهم الدقيق باللغة فأكبوا على تقعيدها ودراستها .

.ونستطيع أن نقرر هنا أيضا أن نشأة علم اللغة قد بدأت بمرحلتين مختلفتين :

الأولى : كما قررنا هي دراسة المبهمات والغريب من القرآن وكانت هذه الدراسة عنـــــد العرب وهم كما نعلم قوم فطريون ليست لديهم ملكة التصور والخيال الا بقدر ما تعارفـــوا عليه فكان هذا هو الاختلاف الذى امتد فيما بعد وأخذ شكل الفرق الاسلامية من سنيـــة ومعتزلة وشيعة وجبرية ومشبهة ومجسمة .

الثانية : فهى محاولة وضع قواعد اللغة يسير عليها غير العرب من العجم حتى يستطيعـــوا بها قراءة وفهم القرآن وأثر ذلك واضح تمام الوضوح فيما تركوه من آثار فانهم ما ان ملكـــوا زمام اللغة حتى أفاضوا بالكثير من الكتب عن القرآن أهمها تلك «التفاسير القرآنية»

ومن الخطأ ما ذهب اليه أيضا حين قرر أن نشأة الدراسات اللغوية الخالصة كانـــــت ضعيفة(١) (ومن الطبيعى أن نشأت الدراسات اللغوية الخالصة ضعيفة لا تستطيـــــع أن تعتمد على نفسها أو تنفرد بوجودها ثم أخذ المهتمون بها يغزونها بأقوالهم وأبحاثهم فتقوى وتنمو الى أن استطاعت الوقوف على رجليها فالاستقلال بنفسها ثم بلغت مرحلـــــة النضوة والنضج في هذه المرحلة الأخيرة ظهرت المعاجم، أما ما قبلها من مراحل فلم تـــر المعاجم وانما رأت رسائل لغوية صغيرة ذات اتجاهات مختلفة) .

والواقع أنها ليست بذلك الضعف الذى تقصده معاجمنا فقد جانب المؤلف الصواب فـــى اختيار هذا اللفظ وكان الأولى به أن يقول قليلة أو ضئيلة وهى مع هذا لا نستطيـــــع أن نطلق عليها سوى ما نطلق على نشأة أى علم آخر فان هذه الفترة لم تكن للدراســـات اللغوية ذلك الاحتياج الكبير الذى وضح بعد ذلك مثلا فى تلك الشعوب التى أصبحـــت تتكلم العربية، فهى اذن تسير سيرا نسبيا مع الحاجة والحاجة فى ذلك الوقت لم تكـــــن

---

١ - المعجم العربى / دكتور حسين نصار ص ٢٣

تحتاج إلى معجمات كما أن ظهور المعاجم لم يتأخر كثيرا .

فاذا ما رجعنا الى الفترة الأولى من حياة الاسلام لوجدنا أن المستمعين للقـــرآن الكريم (لا نرى تحفظ) حجة له من المؤمنين أو من هو حجة عليه من الكافرين (كانـــوا يفهمونه

ولا من خفيت عليه مقاصده ومعانيه (بل كان وضوح معانيه ويسر فهمه هو الأصل فيما قـــام حوله من صراع بين المؤمنين والكافرين فلم تزل آياته تتتابع فتطمئن إليها الجماعة وما كـــان هذا الاطمئنان ليكون إلا من كلام مفهوم (وأن القرآن كلام ذو معان تدل عليها تراكيبـــه اللفظية (وعلى ذلك انعقد إجماع الأمة الإسلامية على أن لكل لفظ في القرآن له معنـــاه الإفرادي وكل كلام له معناه التركيبي وأنه لم يرد في القرآن ما لا معنى له (وعلى هذا ســـار المؤمنون الأوائل في حفظ وفهم القرآن (وكانوا اذا اختلفوا على شيء ردوه الى رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم ليوضح لهم ما أغفل من معانيه - غير أن هذا الاختلاف بين المسلميـــن (لم يكن مرجعه الى فهم المعاني أو دلالة الكلمات (بل كان مرجعا الى اختلاف لغـات العرب مما كانت آثاره فيما بعد مثلة في ظهور القراءات القرآنية وتعددها .

وبعد عصر الرسول عليه السلام كان المرجع الأول للمسلمين هم صحابة الرسول صلـــى الله عليه وسلم (الذين قاموا بحمل الرسالة والسير بها ضاربين أروع الأمثال للعقليـــــة الإسلامية الناضجة التي قامت لأول مرة بتطبيق الشرع على العقل (مظهرين قدرات سياسيـــة ما زالت حتى اليوم من مفاخرنا .

فأبو بكر رضي الله عنه قام بعملية جمع القرآن وكانت هذه لفتة عظيمة منه ولو لم يكن لـــه غيرها لكفاه فخرا بهذا العمل الذي حفظ لنا التراث (وضيع على المعرضين فرصة لا تعـــوض كتلك التي أخذها اليهود على أناجيل السيد المسيح عليه السلام (كما أنه بهذا العمـــل قد وثق النص اللغوي والأصل الثاني للغة - ثم جاء من بعده عمر بن الخطاب رضي اللـــه

عنه الذى قام بتطبيق العقل على الشرع فوضع بذلك حجر الأساس للحكومة الإسلامية دالا على قدرته العظيمة فى فهم النصوص وتطبيقها على مختلف جوانب الحياة ،ثم من بعده عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى قام بأكبر عملية سياسية دينية فى تاريخ الاسلام حين وحد المصاحف فقضى بذلك على فتنة لو قدر لها لتزعزع مركز الكتاب الكريم - ثم من بعده على بن أبى طالب كرم الله وجهه مدينة العلم بعد الرسول ومقصد كل مسلم فى فهم دينه فقد أجمع عليه كل الصحابة يستشيرونه فى كل ما غمض عليهم فكان مثال المشرع الواعى الفاهم والقابض على كتاب الله وسنة رسوله . ولا ريب أنه اذا كان هو الذى أمر أبا الأسود الدؤلى بوضع علم النحو لكان بذلك من أكبر المسلمين الذين درسوا النص القرآنى بفهم واع وأدرك متطلباته واحتياجاته وقد ظهر هذا واضحا فيما نسب اليه فى كتاب "نهج البلاغة" .

وبجانب ابن عباس الذى سبق الكلام عليه وأصحابه بدأت العلوم اللغوية وبدأ العرب ينظرون الى هذه اللغة نظرة مغايرة لما سبق أن الفوه فقد استقرت الحياة بعض للشئ وابتدأت فى الظهور بجانب اللغة العربية لغات أخرى لها من الخطورة ما يخشى منها على العربية،كذلك انتشر اللحن على ألسنة العرب ما حدا بالعلماء أن يشدوا الرحال الى البوادى يشافهون الأعراب وينقبون عن اللغة السليمة البعيدة عن التأثير،ومن أشهر من قام بهذا العمل منهم أبوعمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب والكسائى والأصمعى وغيرهم . كذلك أيضا كان التدوين العلمى قد سار شوطا لا بأس به فكانت محصلة كل هذا هو علم اللغة والذى سرعان ما قامت المعاجم بتأسيس أهم أركانه .

ويبدو أن فكرة علم المعاجم كانت كغيرها من الافكار التى انتشرت فى ذلك الوقت حيث نزع كل عالم الى وضع قواعد علم جديد كما أن الاتجاه فى ذلك الوقت الى التدوين حيث كان التراث معظمه قد دون فاتجهوا الى اللغة التى هى أليق بالحفظ فجمعوها ودونوها كما جمعوا الأشعار وسنن العرب .

وأول من اختمرت في ذهنه هذه الفكرة الا وهي جمع اللغة وتدوينها فيما تعطينا المصادر هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عاش في أوائل القرن الثاني وأخرج كتاب العين (١) الذي يعد بحق أول معجم في العربية ولا يعنينا هنا الاختلاف عليه فتلك المسألة قد شغلت العلماء العرب زمنا طويلا ولم يصلوا فيها الى رأي قاطع وهو أمر عرضي بالنسبة لدراستنا، فإن ما يهمنا هنا هو وجود المعجم الذي هو دليل على نضج علم اللغة وتفرع دراسته، فسواء أكان الخليل هو الذي وضعه أو جمعه تلاميذه من بعده فإن ذلك يعني أن الفكرة قد اكتملت ونضجت، والواقع كما سبق أن قلنا بولع العرب بالجمع والتدوين فإن ما جمعوه ودونوه من رسائل صغيرة لبعض الموضوعات كالخيل والحشرات والحيوانات والطيور كانت هي الفكرة الممهدة للخليل لكي يخرج كتاب "العين" (٢) ويرجع السبب في اهتمامنا بالكتاب نفسه دون الخلاف عليه الى المنهج الموجود فيه فقيمته الآن ليست في مادته بقدر ما هي في منهجه .

وبحق فإن الخليل قد وضع الأساس الذي سار عليه كل من جاء بعده من ساير له ومن خالف فأما من ساير فقد اقتنع بما جاء به الخليل عازيا التقصير والنقص الى أنها المحاولة الأولى من نوعها في اللغة وأن الخليل حين تصدى لهذا العمل كان في أواخر أيامه وكفاه إن فتح لهم الطريق ومهده . ولقد ظل منهجه مؤثرا في كثير من العلماء سواء الذين اعترفوا بالتبعية أو تنكروا له ويتلخص منهجه في الآتي : (٣)

١ - حصر جميع الكلمات في اللغة بالطريقة التي يطلق عليها الآن التباديل والتوافيق .

٢ - ترتيب هذه الكلمات وفقا لمخارج الأصوات مبتدئا بالأبعد في الحلق ومنتهيا بما يخرج من بين الشفتين (ع - ح - هـ - خ - غ - ق - ك - ج - ش - ض - ص - س - ز - ط - ت - د - ظ - ذ - ث - ر - ل - ن - ف - ب - م - و - ى - أ -) وقد سمى الخليل باب كل حرف من هذه الحروف في معجمه كتابا .

---

١ - المعاجم/ دكتور عبد الله درويش ص ٧٣
٢ - المعاجم العربية/ دكتور عبد الله درويش ص ١٧
٣ - نفس المصدر

٣ ـ استقصاء الأبنية فيما بين الثنائي والخماسي .

٤ ـ شرح المستعمل وترك المهمل .

وكان من بين ما وضعه الخليل أساسا لمنهجه الاستشهاد بالشعر على الغريب أو المبهم وكان في شواهده القرآنية أميل الى التعليق عليها وشرحها وعد القراءات التي في الآية كما أنه أكثر من الاستشهاد بالحديث .

وتدفق بعد ذلك العلماء على هذا النوع الجديد من الدراسة ما حدا بكثير من الباحثين الى تقسيمهم وتصنيفهم الى تقسيمين :

١ ـ تقسيم تاريخي

٢ ـ تقسيم تصنيفي

فالدكتور أنيس يذهب في تقسيم علماء المعاجم الى طبقات : (١)

أ ـ الطبقة الأولى : بصريون ومنهم : أبو عمرو بن العلاء ـ عيسى بن عمر الثقفي ـ أبو الخطاب الأخفش ـ الخليل بن أحمد ـ يونس بن حبيب ـ خلف الأحمر .

كوفيون ومنهم : المفضل ـ الضبي ـ حماد عجرد .

ب ـ الطبقة الثانية : أصحاب الرسائل والكتيبات الخاصة بالألفاظ : أبو الفضل أبو زيد الأنصاري ـ الأصمعي ـ أبو عبيدة ـ نصر بن المثنى ـ النضر بن شميل اليزيدي ـ أبو عمرو الشيباني .

ج ـ الطبقة الثالثة : أبو حاتم السجستاني ـ أبو عبيدة ـ ابن السكيت ـ ابن الأعرابي ـ ابن سلام ـ أبو عمرو شمر الهروي .

د ـ الطبقة الرابعة : أصحاب المعاجم بالمعنى المألوف لنا : ابن دريد ـ ابن الأنباري ـ الهمداني ـ قدامة بن جعفر ـ القالي البغدادي ـ الأزهري ـ الزبيدي ـ الصاحب بن عباد ـ الجوهري ابن فارس .

---

١ ـ دلالة الألفاظ / دكتور ابراهيم أنيس ص ٥٦

فهذا التقسيم الذى بين أيدينا تقسيم تاريخى)وان كان ظاهر فيه تصنيفا فإن مرجعه الى الصادفة لمير الا فقط فقد اتسمت كل فترة من هذه الفترات بعمل معين . فالطبقة الأولى نجد فيها أبوعمرو بن العلاء وهو احد أساطين الفكر العربى وشيخ من جاء بعده فقد تتلمذ عليه عيسى بن عمر الثقفى وأبو الخطاب الأخفش والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وخلف الأحمر ،كما تتميز أيضا بوجود المفضل الضبى صاحب المفضليات وحماد الراوية .

أما الطبقة الثانية فنجد فيها معظم المدونين أمثال الأصمعى وأبى عبيدة .

والطبقة الثالثة بها أصحاب التآليف .

والطبقة الرابعة فهى طبقة المشاهير مما كان لهم باع كبير فى المعاجم العربية ويكفى أن بها الجوهرى - والصاحبى والأزهرى - وابن دريد .

أما الدكتور على عبدالواحد (١)فيذهب مذهبا آخر غير الدكتور ابراهيم أنيس حيث قام بتصنيفهم فى طبقات ثلاث وفقا لنوع المعاجم وهو أقرب الى التصنيف المعجمى :

الأولى : رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى وهو النوع الأول فى الظهور .

الثانية : المعجمات الجامعة التى ترمى الى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى ،ومن أشهر ما ألف فى هذا النوع :

كتاب الألفاظ لابن السكيت(١٨٦ - ٢٢٤ هـ)

كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى (٣٢٧ هـ)

كتاب مبادئ اللغة للاسكافى (٤٢١ هـ)

كتاب فقه اللغة للثعالبى (٤٢٩ هـ)

كتاب المخصص لابن سيده (٤٥٨ هـ)

الثالثة : وهى المعجمات التى ترمى الى شرح المفردات " يحتاج اليها من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على مدلوله " . وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل

---

١ - فقه اللغة/دكتور على عبدالواحد ص ١١١

هو الخليل بن أحمد، ويرى الدكتور على عبدالواحد أن أصحاب الطبقة الثالثة الذيـــــن جاءوا بعد الخليل قد رجعوا جميعا الى كتاب العين ينهلون منه، فبعضهم قام باختصـــاره، وبعضهم قام بتهذيبه، وان خالفه البعض في التبويب ولكن الجميع كانوا عيالا عليه .

ونكتفي هنا بهذين التقسيمين اذ لم يقم أي باحث آخر بوضع تقسيم جديد، ونحن اميـل الى الأخذ بالتقسيمين كل في مكانه، فلا غنى لنا عن التقسيم التاريخي، اذ أنه هو الدليـــل الوحيد لدراسة تطور اللغة، ولا عن التقسيم الطبقي الذي يكفي الباحث مشقة البحث فـــي كل المعاجم بتحديد اتجاهاتها وتصنيفها ، وهنا لابد لنا من وقفة قصيرة أمام معاجمنـــا - فالبرغم من وفرة المعاجم في لغتنا الغنية في مفرداتها ومشتقاتها ومترادفاتها الا ان هذه المعاجم لم تعط اللغة حقها فالمعجم هو المثل الأول للغة والذي يجب أن يكون حاويـــا لها شارحا ما فيها مزيلا عنها كل غموض والتباس (١) الا أنه في معاجمنا فقد جاءت كلهـــا عن طريق واحد ليس فيها تصنيف واضح أو نظرة فاحصة فيها جمع . وتكاد تكون كلهـــا على وتيرة واحدة حتى أنه يمكننا القول بأن الوحيد الذي قدر له وضع معجم هو الخليـــل بن أحمد أما الذين جاءوا من بعده فقد اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا، فقد اتفقوا معه فـــي الأصول وخالفوه في الفروع أحيانا، فجاءت معاجمهم اختصارا لمعاجم سابقة أو مهذبة لهـــا أو على غرارها، وهذا هو أوضح العيوب في نظرتنا فان اعتماد كل طبقة من أصحاب المعاجم على الطبقة السابقة لها كان أمرا عظيم الخطورة في لغتنا فمن ناحية مال العرب الى الكـــم وليس الى الكيف في معاجمهم فذهبوا يحصرون ويجمعون بغير حس دقيق أو وعي كافـــي، فكان همهم الأول هو جمع الفصيح أو الغريب دون النظر الى الزمن الذي يعيشون فيـــه وما استحدثته الحياة من دلالات في اللغة كان الأحرى بجمعها وتسجيلها ووصفها، فإنهـــم بدلا من هذا ساروا في اتجاه آخر مثل الاتجاه الأول الذي تكلمنا عنه وكان هذا هـــو ولعهم بالغريب والشاذ بقصد التعجيز وتنبيل الهمة وما كان أغنانا عن هذا .

---

١ - Encyclopedia Britanica.

فذلك كان تحديدهم للفصيح والقبائل التي يؤخذ عنها فقد كان أولى بهم أن يجمعوا هذه اللغة على انفراد وتوحيدها وتوصيفها فالعربية الآن ليست لغة قبيلة بل لغة أمة وكان يهمنا أن تكون هذه اللغة بين أيدينا ومن هذا نرى أن نظارة القدماء كانت نظارة ضيقة شابها التعصب والغلو .

كذلك كانت المراجع التي يرجعون اليها في وضع معاجمهم قليلة للغاية فاللسان كما جاء في مقدمته قد اعتمد على خمس مراجع .

كذلك كان اهمالهم للمولد أمرا عظيم الخطورة فقد ضيع علينا هذا فرصة كبيرة لدراسة التطور اللغوي في عهده سايرا للحياة الاجتماعية والسياسية وخاصة اذا ما عرفنا تقلب المجتمع الاسلامي بين عدة بيئات مختلفة منها البيئة الصحراوية في عصر الرسول (ص) والبيئة الحضرية المتمسكة بالأصول العربية في العصر الأموي ثم البيئة المتحضرة التي رست نفسها في أحضان الحضارات القديمة كالعصر العباسي الذي احتضن الثقافة الفارسية واليونانية ثم ما استجد بعد ذلك من حضارات كبيرة كالحضارة المغربية في غرب أفريقيا والحضارة الأندلسية .

فاللغة شأنها شأن كل كائن حي تخضع للتطور والتوالد ولكن مع أسفنا الشديد قد قامت معاجمنا بعملية تحجير للغة محاولة وقف تطورها ونموها .

واذا كان من صفات النصوص الدينية أنها تحجر على اللغة عن طريق وضعها في قوالب لا تتحرف عنها أو تزيد ما بها محافظة على دلالاتها سواء أكان هذا عن طريق ظاهر اللغة أو تأويل باطنها فان هذا أيضا برغم ضرره للغة الا أنه قد حافظ عليها واز جد لنا زمنها شوقيه ولا يشوبه انحراف أو تشويه فجاءت اللغة الينا سليمة بنصوص موثقة ولكن هذا الأمر ليس مقبولا على الاطلاق فقد كان عليها أن تساعد اللغة على الانطلاق والتوالد والاتيان بالجديد لمسايرة الحياة أي أن تسير اللغة مع الزمن لا أن يتوقف الزمن للغة .

فاذا كان للنصوص الدينية أن تحتفظ بدلالة ثابتة لكلماتها فليس معنى هذا أن الدين غير متطور/فالتطور هنا لا يساير الألفاظ بقدر ما يساير التطبيق العملى المثل فى الشرع والمثل أيضا فى التوسع بما يجئ به الفكر فى حياة الأمة فمعاجمنا قد وقفت جميعها متشبعة بالفكر الدينى/وكان الأجدر أن يكون للدين معاجمه الخاصة به والحياة معاجمها الخاصة بها/فمن غير المعقول أن يقوم مؤلف فى القرن الرابع أو الخامس بوضع معجم يعتمد فيه على لغة القرن الأول فان هذا هو الغريب فعلا لأنه يخلق اللفظة الموحشة القليلة الاستعمال فى هذا العصر/بينما هى فى عصرها لفظة لها قيمتها الدلالية .

كذلك وقعت معاجمنا فى شبه اضطراب كبير من ناحية الاستعمال الصرفى الاشتقاقى للكلمة/فقد أجبرهم هذا فى كثير من المواضع الى تكرار اللفظ أكثر من مرة/أو نقله من مكانه المفروض أن يكون فيه/مثل الرباعى المضعف الذى اعتبره الكوفيون مشتقا من الثلاثى بينما اعتبره البصريون مادة اصلية كذلك المعرب من الألفاظ الذى أورده أصحاب المعاجم

هذه الحقيقة التى الحقبة الأولى عندما قاموا بوضع معاجمهم/وكان أول من فعل ذلك هو الخليل بن أحمد/فمع تقليبات للكلمة/أورد للكلمات ذات المعانى تفاسيرها ومعناها/أما ما عدا ذلك فقد اعتبره مهجورا ،والواقع أن ما اعتبره الخليل مهجورا/لم يكن كذلك بقدر ما هو يتوافق حروف لا معنى لها/أى أنها مجرد ألفاظ لا جدوى منها/حيث أنه لا دلالة لها ولا تثير فى الذهن شيئا/فالمعاجم العربية قد اهتمت بكل كلمة وراءها معنى وبكل كلمة وراءها معنى وبكل لفظ له نصيب من المعنى ولو قدرا ضئيلا .

ولسنا نميل هنا الى ايراد تعريف العلماء بالكلمة واللفظ والتفريق بينهما اذ أن ما

---

١ -

كتب فى هذا الموضوع حتى الآن قد حدده بصورة نهائية من أن اللفظ هو عملية النطـــق وخروج الصوت فاذا ما ربط بين هذه الأصوات وما يمكن أن تدل عليه من معنى تكونت الكلمة التى هى أساس المعجم ولا خلاف هنا مع ما قاله الدكتور تمام فى تعريفه للكلمة(١) (صيغة ذات وظيفة لغوية معينة فى تركيب الجملة تقوم بدور واحدة من وحدات المعجم ، وتصلـــح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغير موضعها أو يستبدل بها غيرها فى السياق ، وترجـــع فى مادتها غالبا الى أصول ثلاثة ، وقد تلحق بها زوائد) .

ومن طبيعة الكلمة أن يكون لها وظيفة لغوية فـــى تركيب الجملة

فلم يجادل فيه اصحاب اللغة اذ أن هذه العملية من اختصاص أصحاب البلاغة وهو بهـــذا التصريف قد تناول جوانب الدلالة الأربعة :

١ ـ الجانب الصوتى

٢ ـ الجانب الصرفى

٣ ـ الجانب النحوى

٤ ـ الجانب الاجتماعى

والواقع أن أى كلمة لا تكاد تخلو من هذه الجوانب الأربعة التى حددت فيما بعـــد وسميت بالدلالة وفى هذا يقول الدكتور أنيس (لا يتم الفهم أو يكمل الا حين يقف السامـــع على كل هذه الدلالات) فالدلالة الصوتية ترجع أهميتها الى طريقة المتكلم فى تحديـــد المعنى سواء عن طريق النبر والارتكاز أو الاضغام وغيره وهذا ما يطلق عليه الدكتور أنيـــس "النغمة الكلامية" من التعبير الانجليزى .

أما الدلالة الصرفية فتتضح فى طريقة الصيغ وبنيتها ويدخل فيها ما نطلق عليه التحسيم لأنها تبين التفاوت فى النوع .

---

١ ـ مناهج البحث فى اللغة ص٢٠٠ دكتور تمام حسين

والدلالة النحوية لابد منها اذ لا تفهم الكلمة في مسار الجملة الا بها .

ثم نأتي بعد ذلك الى أهم أنواع الدلالة وهي الدلالة الاجتماعية فلكل كلمة من كلمات اللغة دلالتها الاجتماعية التي هي المعنى الذي يفهمه الفرد في المجتمع من ألفاظ لغته ويتفق معه في هذا الفهم أفراد المجتمع(١) ويعرف الدكتور أنيس هذه الدلالة حيث يطلق عليها الدلالة المعجمية أو الاجتماعية (كل كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية) كذلك يرى أن هذه الدلالة تحتل بؤرة الشعور لأنها الهدف الأساسي في الكلام .

ولا معنى لما حاوله البعض في التفريق بين الدلالة الاجتماعية والدلالة المعجمية - فالدلالة الصوتية نجدها بوضوح في كتب اللغة وكذلك النحوية والصرفية نجدها في كتب النحو والصرف فتكون المعاجم اذا هي المختصة بالدلالة الاجتماعية لأنها تحوي المعنى الذي تعارف عليه المجتمع .

وقد ازدادت العناية بهذا الفرع حتى أصبح الآن علما مستقلا هو علم الدلالة أو علم دراسة المعنى (٢) . Semantics وهذا العلم يقوم على دراسة المعنى من الناحية الوصفية فتدرس معاني الكلام في لغة من اللغات في فترة من فترات استعمالها في مكان معين ثم تدرس من الناحية التطورية فيدرس تغيير معاني الكلام في لغة من اللغات عبر عصر أو عصور ... عصر من مراحل تاريخها ،وعلى هذا فان هذا العلم يعتبر غاية الدراسات .

أما الذين تصوروا أن علم الدلالة قاصر على اللغات التي لم يوضع لها بعد معاجم فان أكمل ما رد عليهم هو رد الدكتور المرحوم محمود السعران حيث يقول :

(قد يتصور بعض المبتدئين في الدراسة اللغوية أن علم الدلالة أو دراسة المعنى قاصر

---

١ - دلالة الألفاظ /دكتور ابراهيم أنيس

٢ - علم اللغة/دكتور محمود السعران ،الباب الرابع

على اللغات التى لم يوضع لها بعد معاجم أو قواميس فاللغات ذات المعاجم فى غنى عن هذه الدراسات لأن المعاجم تمدنا بمعانى الكلام وهذا تصور خاطئ لأن المعنى القاموسى أو المعنى المعجمى ليس كل شئ فى ادراك معنى الكلام فثمة عناصر "غير لغوية" ذات دخل كبير فى تحديد المعنى ،بل هى جزء أو أجزاء من معنى الكلام وذلك كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات)كذلك يرى أن المضمون للكلمة وهو هنا الكلمة المعجمية يختلف اختلافا كبيرا عن المضمون النفسى وهو حالة المتكلم أو السامع أما عند الاستعمال فلا يستعمل هذا مفصولا عن ذاك .

أما علاقة هذا العلم بهذه الدراسة فلأن أهم أركانه هو دراسة تغيير المعنى أو التطور الدلالى Semantic development الذى يحدث تدريجيا فى أغلب الأحوال ولكنه قد ينتهى آخر الأمر بتغير كبير فى المعنى (٢)وهذا التغير قد يأخذ صورا كثيرة لتغير الدلالة الاجتماعية: فى وضع جديد، التغير الدلالى نحو ارتفاع، التغير الدلالى نحو الانحطاط ويجعل الدكتور السعران مايراه أعم التغيرات فى هذه التغييرات فى قائمة واحدة تصدق على جميع اللغات(٣) :

١ - التغيير الانحطاطى :

وهى الدلالات التى كانت فى نظر الجماعة مدينة قوية ثم تحولت فصارت دون ذلك مرتبة.

٢ - التغيير السامى :

وهى الدلالات التى تشير الى معان هينة أو وضيعة ثم صارت فى نظر الجماعة الكلاسية على معان أرفع وأشرف .

٣ - التغيير نحو التخصيص :

وهى الألفاظ التى كان يستعمل كل منها للدلالة على طبقة عامة من الأشياء فيدل كل

---

١ - علم اللغة/دكتور محمود السعران ،الباب الرابع ص ٢٨٠

٢ - نفس المصدر

٣ - علم اللغة/دكتور محمود السعران

منها على حالة أو حالات خاصة .

٤ - التغيـــر نحو التعميـــم :

وهو ضد التخصيـــص

٥ - التحويل نحو المعانى الضادة وهى استعمال كلمة للدلالة على معنى معيـــــن واستعمالها فى نفر الوقت للدلالة على ضد المعنى وهذه القائمة

اللغة التى يطبق فيهـــــا

كلفتنا مثلا التى تمتاز بوفرة المترادفات والتنقلات الاجتماعية العنيفة والتناحر الكبيـــــر لمجموعة عجيبة من الثقافات تتمثل فى اليونانية والفارسية والهندية والعبرية وغيرهـــــا ،فهذه القائمة ان طبقت فانها تطبق فقط عند الدراســـة من الناحيـــة الاجتماعيـــــة ،فعلو اللفظ وهبوطه وتعميمه وتخصيصه كلها تدخل فى نطاق المجتمع المتطـــــور تطورا عاديا الا المؤثر فيه من الخارج أو الذى استحدث دلالات لم تكـــن موجـــــودة فى الماضى .

واذا ما رجعنا للكشف عن هذا التطور الدلالى فى معاجمنا فاننا لا نجد له وجـــودا على الاطلاق الا فى نواحى قليلة مبعثرة فى كتـــب اللغة ،اذ لم يفطن العربى الـــــى هذا التطور ولم يكن يقصده بل كان همـــه كله موجها الى البحـــث عن الفصيح والمولـــد والغريب وعزفوا عن البحث فى هذا التطور الدلالى ومرت القرون دون أن يدونوا عنـــــه شيئا أو يقوموا بدراسة هذا التطور .

وقد أدرك الدارسون المتأخرون بعد أن استقرت الحضارة العربية واستقرت أيضـــــا دراسة اللغة أنه لا بد ســـــــــــ من دراسة هذا التطور الدلالى الذى أدى بدوره الـــى تطور واضح فى مجرى حياة التشريع الاسلامـــى ،مثلا فى أهل الرأى وأهل السنة ثـــــم بعد ذلك فى أهل الظاهر والحنابلة كما أنه أدى أيضا الى تطور من نوع آخر

مثلا ذلك فى المذاهب الاعتقادية التى ربما لا التاريخ الحضارى من [illegible] ماتزيرية وأشعرية ومعتزلة ،وينبغى لنا هنا أن نشير الى أن الأشعرى قد وقف موقفا وسطا من هذه الفرق معتمدا فى موقفه هذا على اللغة : فاذا كانت الألفاظ التى وردت فى ثنايا النص القرآنى والتى تصف الذات الالهية بعض الصفات المؤدية أحيانا الى شئ من المشابهة من الحوادث كاليد والوجه بقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) (١) وفى قوله تعالى (كل شئ هالك الا وجهه) (٢) وفى قوله تعالى (لأخذنا منهم باليمين) (٣) فان كل لفظ من هذه الألفاظ فى تطوره الدلالى له طرفان : طرف أول وطرف آخر فالأول هو ما يدل عليه ظاهر اللفظ وبه أخذ المجسمة والمشبهة ،أما الطرف الآخر فانه الذى أخذ به المعتزلة فى التنزيه المطلق وكلاهما فيما يرى الأشعرى ضال فيما ذهب اليه والوجه الحق أن نقف فيها موقفا وسطا فاذا كان الله قد أثبت لنفسه يدا فانها يد لا كأيدينا وعين لا كأعيننا ووجه لا كوجوهنا .

كذلك كان الأمر فى التشريع نفسه فأهل الظاهر يرون أن الخمر فى قوله تعالى (انما الخمر والميسر) (٤) يراد بها ما سكر العقل لا ما اختص به عند أهل الرأى من عصير العنب وعلى ذلك فلا داعى للقياس عند أهل الظاهر وعند الحنابلة أيضا ،أما المسكرات الأخرى التى ليست من عصير العنب فانها لا تدخل عند أهل الرأى فى الخمر وانما هى شراب مسكر له حكم آخر غير حكم الخمر ،كذلك الأمر فى الربا فان الآية المحرمة له تدل على جميع أنواع الربا من الفضل والنسيئة وقد لخص ابن القيم فى كتابه "أعلام الموقعين" الى هذا كله فى الفصل الذى عقده عن الكلام عن الأخطاء التى وقع فيها

الفقهاء لاهمالهم البحث في التطور الدلالي في حياة الألفاظ العربية التي وردت في النص القرآني .

فاذا كان هذا هو الشأن في حياة اللغة التي هي وعاء الفكر الديني ممثلا في القرآن والحديث فكذلك كان أمرها في التشريع العملي التفصيلي فقد لحظ الراغب هذا الاضطراب الهادي في حياة المجتمع الاسلامي نتيجة فهمه الدقيق في تحديد دلالات الألفاظ ومن هذا لم يتعصب لمذهب على مذهب ولم يرجح طريقا من طرق الفهم على آخر اذ ان النص يحتمل الكل من أولئك (١) وعلى هذا فقد واجه هذا الاضطراب بأن وضع معجما محررا (٢) لتحقيق معاني الألفاظ التي وردت في القرآن مقرنا ذلك بالتحقيق بهذا التطور الواضح في حياة اللغة على ألسنة المستعملين لها .

والحق أن اتجاه الراغب الى هذا العمل كان أمرا يحتاج الى دراسة واعية واستقصاء بعيد ولا سبيل الى هذه الدراسة وذلك الاستقصاء الا بتحقيق القول في حياته أهو عربي أم أعجمي وهل كان لهذه النحلة أثرا في توجيهه لهذا الدرس الحديث نظرا لما سبق أن قلنا من أن الموالي كان لهم حسهم اللغوي القائم على التحديد الدقيق والتفريق الواعي بين دلالات الألفاظ ثم كيف نشأ وما هي الثقافات التي حصلها ثم ما هو مذهبه الديني أو الاعتقادي ، كذلك البيئة التي عاش فيها أكانت مادية أم دينية وأثرها في تكوين شخصيته وتفكيره واذا كان في هذا الأمر تعوزنا المراجع التاريخية التي تدلنا على هذا فان فيما ترك من آثار ما يعيننا على تمثل ذلك كله أو ادراك جله ، وهنا لا بد من الاشارة الى الاسباب التي دفعت بالكثير من المؤرخين أن يهملوه (٣) فلم يترجموا له ، وهل كان

---

١ - مقدمة التفسير / للراغب

٢ - المفردات / للراغب - المقدمة

٣ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ، ص ٢٦٨

ذلـــك لأنه عـــاش بعيـــدا عن الدولـــة عاكفـــا على العلـــم والدرس والتحصيـــــــــل أم لأنه لم يترك آثارا ضخمة كتلك التي تركهـــا المؤلفون المعاصـــرون له وكان لافتة اليهـــم.

ونحـــن لم نعـــن بحديـــث مفصـــل عن مؤلفاتـــه الا بقدر ما تدل عليـــه من أثر فـــي تكوين المعجم . وقد اقتضت هذه الدراسة أن أخص معجم مفردات القرآن بدراســـة مفصلة من حيث ترتيـــب الألفاظ وموقفـــه من اللغويـــين السابقيـــن عليـــه في دراســـة الصـــرف وخاصـــة الاشتقاق - تلك الظاهـــرة التي وسعـــت اللغة وأكسبتها الخصوبـــة والنمـــاء ،ثم موقـــف الراغـــب من ظاهرتيـــن شاعتـــا في تفسير الألفـــاظ القرآنيـــــــة وهما ظاهرتا التفسير والتأويـــل (١) ،وهل كان التأويـــل ناشئـــا عن ذلـــــــك التطـــور الدلالـــي لحيـــاة اللفظـــة اذ أصبحـــت تدل علـــى أكثـــر من معـــــنى منها ما هـــو راجح ومنهـــا ما هـــو مرجـــوح وأن التأويـــل يختـــص بالمرجـــوح مـــــن الدلالات لأن السيـــاق يحمله ويدل عليـــه وهو أوثـــق بالكتـــب الدينيـــة وبالنصـــــوص التشريعية وأشد صلة بها .

واذا كانـــت تلك هي الخصائص التي يمتـــاز بها كتابـــة المفردات فما هـــي قيمتـــه بيـــن الكتب التي صنـــفت في الموضـــوع نفسه كمشكـــل القرآن وغريبـــه لابـــن قتيبـــــة وغريـــب القرآن للسجستانـــي وهنا ينبغـــي ان نقرر أن الراغـــب لم يعاصر أصحـــاب هـــذه الكتـــب ولم يعـــش في نفـــس الظروف التي عاشـــوا فيها فان حياتـــه قـــد جـــاءت متأخـــرة عنهـــا مما أدى الـــى رؤيتـــه بوضـــوح لحركـــة التطـــــور الواضحـــــة في حيـــاة اللغـــــة عند اخـــوان الصفا وعند المتصوفة المتأخريـــــــن

---

١ - مقدمة التفسيـــر /الراغـــب

الظاهرة التي وسمت اللغة وأكسبتها الخصوبة والنماء ،ثم موقف الراغب من ظاهرتين شاعتا في تفسير الألفاظ القرآنية وهما ظاهرتا التفسير والتأويل ، (١)وهي كان التأويل ناشئا من ذلك التطور الدلالي لحياة اللفظة اذ أصبحت تدل على أكثر من معنى منها ما هوراجح ومنها ما هو مرجوح وأن التأويل يختص بالمرجوح من الدلالات لأن السياق يحمله ويدل عليه وهو أوثق بالكتب الدينية وبالتصور التشريعية وأشد بها صلة.

واذا كانت تلك هي الخصائص التي يمتاز بها كتابة المفردات فما هي قيمته بين الكتب التي صنفت في الموضوع نفسه كمشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة وغريب القرآن للسجستاني وهنا ينبغي أن نقرر أن الراغب لم يعاصر أصحاب هذه الكتب ولم يعش في نفس الظروف التي عاشوا فيها فان حياته قد جاءت متأخرة عنها مما أدى الى رؤيته بوضوح لحركة التطور الواضحة في حياة اللغة عند اخوان الصفا وعند المتصوفة المتأخرين فكان لابد من ملاحظة هذا التطور وأن يقيم له في عمله المعجمي مكانا وذلك واضح تمام الوضوح في المفردات فيقول ذهب الصوفية وذهب الفقهاء وذهب أهل الحكمة والمناطقة والفلاسفة وكل هذا لم يفطن له أصحاب الغريب السابقين عليه .

واذا كانت الظواهر العلمية كالظواهر الادبية تحدث شبيلات لها عند الأمم التي تشارك الأمة العربية شيئا من الأصل في الجنس أو التاريخ أو الثقافة فقد اقتضى ذلك أن أقوم بشئ من المقارنة بين صنيع الراغب في مفرداته وبين صنيع غيره من الذين تصدوا لدرس الكتاب المقدس وبخاصة التوراة ممثلة في جامع الألفاظ "الأجرون "لأبي سليمان داود بن ابراهيم الفارسي اليهودي القرائي وكتاب الأصول لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي في شرحه ألفاظ العهد القديم كذلك أيضا شرح سعدية الفيومي ثم المعجم العلمي الحديث لعبرية التوراة الذي ألفه في القرن الثامن عشر المستشرق الألماني فيلهلم جزينيوس وكذلك في أحدث طبعاته وآخرها وهي طبعة دريفر ثم طبعة كوهلر .

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب

وليست هذه المقارنة بدعة أخذت بها نفسي فان ما انقسم عليه المجتمع الاسلامي في الاعتقاد ويشبه الى حد بعيد ما انقسم عليه مجتمع أصحاب الكتب التي أشرت اليهـــا كاليهود القرائيـــن والربانيين والصدوقيين والفريسيين .

واذا كان في ذلك البحث الذي اخترته موضوعا للدراسة جديد فانـــه يتضح فيـــه :

١ ـ القاء الضوء على تلك الشخصية التي لم تنل حظها من التأريخ لها .

٢ ـ تحقيق مذهب الراغب الديني في وقت تخالطت فيه المذاهب والفرق .

٣ ـ بيان منهجه اللغوي عامة وكذلك منهجه في كتاب المفردات خاصة .

٤ ـ بيان موقفه من المشكلات اللغوية والدينية خاصة في المجاز والترادف والتأويـــل والتفسيـــر .

٥ ـ التأريخ لنشأة المعاجم الدينية للكتاب المقدس والمقارنة بينها وبين العربية .

٦ ـ وضع اطار جديد لمعجم قرآني يستوعب فيه معجم الراغب لتطويره والارتقاء بـــه الى مستوى المعجم القرآني العلمي الحديث عن طريق اضافات لا يسرفيها نـــص الكتاب وانما يكمل بها كما فعل في الطبعات المتعاقبة لمعجم التوراة لجازنيوس.

٧ ـ المقارنة بين المعاجم الدينية في اللغات السامية ما دامت كل هذه المعاجـــم تتصل بنص ديني وبلغة يفهم بها ذلك النص ويفسر على مدى الحقب والأجيال .

وقد اقتضى ذلك مني أن أقسم هذا البحث الى مدخل وثلاثة أبواب :

فالمقدمة وهي التي مررنا بها حتى وصلنا الى هذه النقطة هي مدخل هذه الرسالة ولـــم أكن لا أستطيع أن أوجز أكثر من هذا للعجز الواضح في الدراسات المعجمية لدينا وفـــي النظر الى اللغة من وجهة معجمية كذلك دراسات فقه اللغة وبالأخص اللغات العلميـــة

فكان على أن أقوم بهذا أو انظر الى اللغة من هذه الوجهات وأن أسير معها شوطـــا كى أصل الى الراغب وعصره وان كان الأمر قد اقتضى منى

وان كانت بحق أجدر من موضوعات كثيرة بالدراسة وأخـــص هذه المرحلة اللغوية الاولى فى فهم النص القرآنى المتمثلة فى ابن عامر ثم موقف العـــرب أمام مفردات لغتهم وكيف دونت وكذلك ارتباطها بالتشريع ثم جهودهم فى المعاجـــم وأشكالها وأخرج من هذا لدراسة دلالة الألفاظ عند العرب لأصل الى عصر الراغب .

أما الباب الأول فقد قسمته الى مدخل وخمسة فصول :

المدخـــل : وقد تناولت فيه وضع هذه الشخصية بين الشخصيات التى يؤرخ لها .

الفصل الأول : وفيه قمت بتحقيق اسمه ونسبه .

الفصل الثانى : تكلمت فيه عن حياته ومولده .

الفصل الثالث : تناولت فيه شخصيته بالدراسة عن طريق مؤلفاته وكلام المؤرخين عنه .

الفصل الرابع : وقد قمت فيه بتحقيق مذهبه من كتبه .

الفصل الخامس . تناولت فيه أهم أعماله المرجود منها وما فقد ثم تكلمت عن اتصال رجال الطبقات لـــه .

الباب الثانى . وقد قمت بتقسيمه أيضا الى مدخل وأربعة فصول :

المدخـــل : تكلمت فيه عن كتاب المفردات ونظرية الراغب فيـــه .

الفصـــل الأول :

الفصـــل الثانى : تناولت فيه الأسباب التى دفعت الراغب لتأليفه المفردات .

الفصـــل الثالث : وفيه تكلمت عن منهجه .

الفصـــل الرابع : تعرضت فيه لموقفه من المشكلات اللغوية والدينية وبينت موقفه منهـــا ، وهذه المشكلات هى : المشترك اللفظى - مادية اللغة - تحقيق الألفاظ - المجـــــاز والترادف - التفسير والتأويـــل .

الباب الثالث : وقد قسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناولت فيه معنى كلمة الغريب ثم عقدت مقارنة بين صنيع الراغب وصنيع غيره من تناول هذا اللون بالدراسة .

الفصل الثاني : وفيه عقدت مقارنة بين اللغة العربية واللغة العبرية مبينا أهم وجوه التشابه التي دفعتني لعقد هذه المقارنة .

الفصل الثالث : وقد قمت فيه بالتأريخ لحركة المعاجم العبرية مع بيان مناهج العلماء اليهود أمثال سعديا الفيومي وداود بن سليمان ومروان بن جناح وجزينيوس .

أما الخاتمة فقد تكلمت فيها عن النهضة اللغوية للمعاجم العبرية ثم فكرة في تطوير معجم المفردات للراغب والارتفاع به الى مستوى المعجم القرآني العلمي الحديث كما عمل في الطبعات المتعاقبة لمعجم التوراة لجزينيوس .

وفي ختام هذا المدخل المثل للمقدمة ينبغي لي أن أشير الى شيئين هامين واجهاني :

١ - عدم وجود المراجع المتصلة بحياة الراغب في مدينة الاسكندرية وكذلك في القاهرة أما القليل الذي وجدته بدار الكتب بالقاهرة فقد عانيت فيه الكثير حيث أن معظم هذه الكتب قد حفظ في مخازن القلعة لحمايتها نظرا لحالة الحرب التي تعيشها البلاد في الوقت الحالي .

٢ - اني وجدت أن هناك دراسات قديمة عن هذا الرجل موجودة في كتب الشيعة وهي لدينا عزيزة المنال فدرست ما وجدت ،أما الذي لم أجده فعلى فرصة أخرى وزمان آخر ان استطعت الحصول عليه .

وقد اقتضى مني هذان الأمران مداومة السفر والكتابة الى أصحاب الشأن في الخارج لامدادي بالكتب والمراجع وخاصة المراجع العبرية الباهظة الثمن والعزيز الحصول عليها

مثل معجم التوراة لجزينيوس ومعجم التوراة لكوهلر والأصول لمروان بن جناح وريحـــــانة الجنات للخوانسارى وأعيان الشيعة للعاملى وغيرهما .

فالى أولئك الذين وافونى بتلك المراجع الثمينة أقدم لهم شكرى وامتنانى أمـــــا أساتذتى الذين درست على أيديهم فكانوا مصباحا لى ينير الطريق فلا أملك لهـــم شكرا بقدر ما أطلب لهم الرحمة والغفران .

وأما أساتذتى الذين علمهم تتلمذت .....

الباب الاول
الراغب الاصفهانى

المدخل

الفصل الاول نسبـــه

الفصل الثانى حياته ومولده

الفصل الثالث شخصيتـــه

الفصل الرابع مذهبـــه

الفصل الخامس اهم اعماله - اغفال رجال الطبقات له

الباب الأول

الراغب الاصفهانى

المدخل :

اعتاد الباحثون عند تعرضهم لتأريخ حياة شخصية هامة أن يتناولوها من عدة جوانب أهمها :

١ ـ النسب والمولد

٢ ـ المذهب الدينى

٣ ـ الحياة الاجتماعية

٤ ـ الارتباط السياسى

٥ ـ الثقافة والمنهج

٦ ـ آثاره العلمية وما انفرد فيها من آراء وملاحظ

فأصل الشخصية ونسبها ومولدها هو أول المداخل التى نستطيع أن نطل منها على هذه الشخصية فنستدل على مقومات اتجاهاتها وتقويمها وذلك بما للعلاقات الانسانية وروابط القربى من أثر ،كما أن غموض الشخصية من جانب قد يوضح نسبها من ناحية ومن ناحية أخرى قرابته أو حتى اقامته فى أغلب الأحيان ،وعلى هذا فان أغلب المؤرخين قد اختاروا هذا المدخل بدءا لأبحاثهم .

والجانب الثانى وهو الجانب الدينى اذ هو جد هام بالنسبة للباحث ذلك أنه ينير له الطريق فيما بعد عند تناول الجوانب الأخرى كما أنهم يحددون بصورة شبه قاطعة أسلوب ومنهج تلك الشخصية فى الحياة الاجتماعية والسياسية .

أما الجانب الثالث فهو ركن لابد منه حيث أنه يبين حياة الشخصية وكيفية تعاملها فى هذا المجتمع والمؤثرات التى أثرت فيها وهل استطاع صاحبها أن يطبق مذهبه

الدينى ومفاهيمه الاجتماعية أو أنه سار حياة تختلف عن معتقداته أو أنه عاش فى بيئـــة تخالف تلك التى كان مفروضا أن يعيش فيها .

أما الجانبان الآخران وهما ثقافته ومنهجه فهما آثاره العلمية فهذان هما خلاصـــة تفاعل الجوانب الأخرى بعضها ببعض فضلا عن أنهما الميزان الذى توزن به كمـــا أن هذا الجانب هو الذى تقيم منه الشخصية .

وليس بالضرورة أن تكون هذه الجوانب مكتملة فإن لم يتوفر هذا الا للشخصيـــات ذات الوزن السياسى والاجتماعى والدينى الكبير والتى ارتبط اسمها بأحداث أو بأمـــراء كان لهم دور بارز فى التاريخ .

والحق أن كثيرا من هذه الشخصيات ليس لها كل هذه الجوانب حيث لم تقم المؤرخون بما هو مفروض عليهم كما لم يمنع هذا من أن تهمل بعض الجوانب الأخرى فكان الالتجاء الى دراسة المقارنات بين الشخصية وبعض الشخصيات المعاصرة لها أو بينهـا وبين من تلقوا منهم أو تلقوا عنهم فيصلون بذلك الى نتائج قريبة ليست قاطعة فـــى الحقيقة ولكنها أقرب اليها .

وعلى هذا نستطيع تقسيم الشخصيات التى أرخ لها الى ثلاثة أنواع .

١ - شخصيات بارزة استطاعت أن تلعب دورا كبيرا فى الحياة السياسية والدينيـــة والاجتماعية تناولها المؤرخون من كل جوانبها كما أنهم قاموا أيضا بدراستها وتقييـــم أعمالهـــا .

٢ - شخصيات بارزة لم يكن لها أى نشاط سياسى أو اجتماعى تناولها المؤرخون بشئ من التفصيل اما لقيمة أعمالهم أو لارتباطها الدينى .

٣ - شخصيات غير بارزة لم يكن لها أى نشاط سياسى أو اجتماعى فرضت نفسها بأعمالهـا ولم تلق العناية الجديرة بها من المؤرخين .

وسنين وراسنا : هذه سنقتصر على تلك الشخصيات الغير بارزة من النوع الثالث والتى لم يكن لها أى نشاط سياسى أو اجتماعى ولكنها فرضت نفسها بأعمالها .

والواقع أننا حين نتصفح كتب المؤرخين فاننا نجدهم يجمعون أشتاتا من الشخصيات بعضهم يستحق أن يذكر والبعض الآخر لا يستحق وهذا راجع بلا شك الى عوامل كثيرة أهمها اتجاه المؤرخ ومذهبه الدينى واتجاهه السياسى وبهذا نراهم قد رفعوا من لا يستحق وأهملوا من يستحق أو بالاشارة الخفيفة اليه .

ومن هؤلاء الذين ظلموا أو أهملوا ولم يأخذ مكانه الصحيح تلك الشخصية التى نؤرخ لها ونتناولها بالتفصيل على قدر ما تتيح لنا المصادر لما تبين لنا من قيمة أعمالها وأصالة آرائها .

الفصـــــل الأول

الراغـــب الاصفهانـــــى

تعرضنا فى مدخل هذا الباب لأركان الشخصية التى يراد التعرض لها وحددنا أهـم هذه الأركـــان :

١ ـ الأصل والنسب والمولـد .

٢ ـ المذهـــب الديـــنى .

٣ ـ الحياة الاجتماعيـــــة .

٤ ـ الارتباط السياســـى .

٥ ـ الثقافة والمنهـــــج .

٦ ـ المؤلفات وأهم الآراء .

فاذا ما قمنا بتطبيق هذه الأركان على حياة الراغب فاننا حتما سوف نخرج بنتيجـة غير مرضية وذلك راجع الى سببين :

١ ـ أن أخبار الراغب الأصفهانى فيما تعطينا المصادر قليلة جدا لدرجة أن ما كتب عنـه لا يتعدى بضعة سطور .

٢ ـ كما أنه حتى هذه الأخبار التى أخذناها من هذه المصادر نجدها متضاربة أحيانـا وعلى هذا فانه يجب علينا الحذر فى تناولها وعدم الاعتماد الا فيما تجمع عليه المصادر .

ولعل أكمل هذه الأركان فى دراسة حياة الراغب هو ركن الثقافة والمؤلفات وهو ما جعلنا نضعه فى الطبقة الثالثة التى فرضت نفسها بأعمالها وليس باتصالها بأمراء أو مشاركتهـا فى السياسة . ونحن فى دراستنا هذه سوف نستغل هذا الركن الهام عوضا عـــن الأركان الأخرى التى لا نجد لبعضها أثرا فيما تعطينا المصادر وقد أتاحت لنا هـــذه القلة القليلة فرصة كبيرة لسرد ما جاء بها عن الراغب :

اسمه ونسبه :

هناك اختلاف حول اسمه وكنيته فيما توافينا به المصادر وهو فيما نرى اختلاف يمكن القطع فيه وعلى هذا فسنبدأ بتحقيق اسم الراغب وفقا لتسلسل المصادر التي كتبت عنه للبحث فيها ونود أن نشير هنا الى كيفية استخدامنا لتلك المصادر فالرجل كما قلنا قد تنازعته الفرق الاسلامية من سنية ومعتزلة وشيعة على أن أهم الذين قد تناولوه فريقان : فريق من أهل السنة وفريق من أهل الشيعة وسنبدأ بتحقيق اسمه من كتب مؤرخي أهل السنة ثم ننتقل بعد ذلك الى كتب الشيعة ثم بعد ذلك في كتبه .

وأول المصادر هو كتاب " تتمة صوان الحكمة " لظهير الدين البيهقي وهذا الكتاب من نقرأ له أهم الكتب فيما روت عن حياة الراغب الأصفهاني فقد ولد مؤلفه سنة ٤٩٩ هـ(١) كما أنه يتشابه كما سنرى فيما بعد من حياة الراغب نفسه فقد ولد ظهير الدين في نفس البيئة تقريبا التي ولد فيها الراغب وهي بيئة فارس حيث ولد في سابزوار من نواحي بيهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان بينما ولد الراغب في أصفهان(٢) القريبة منها وكان البيهقي سنيا جماعيا في بيئة أكثر أهلها من الشيعة(٣) ورغم أهمية هذا المصدر فان اتجاهه ومنهجه فيه لم يسمح لنا أن نستشف الكثير منه وذلك أنه جرى في هذا الكتاب مجرى مصنف كتاب "صوان الحكمة" لأبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني حيث اكتفى فيه بنقل ما عزى الى هؤلاء الحكماء دون أن يهتم بتحقيق حياتهم وأنسابهم .

فعن اسم الراغب وكنيته ولقبه يقول ظهير الدين في العنوان (الحكيم أبو القاسم الحسين بن الفضل الراغب) ثم استرسل بعد هذا العنوان الى التعريف بالراغب

---

١ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي
٢ - محاسن أصفهان / الغروخي ص ٣٢
٣ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٨

(كان من حكماء الاسلام فهو الذى جمع بين الشريعة والحكمة فى تصانيفه)وهذا الكتاب هو الذى قام محمد كرد على بتحقيقه ونشره بعد ذلك مشيرا اسمه الى تاريخ حكمـــــاء الاســـــلام .

وثانى صدر من مصادرنا الهامة هو "بغية الوعاة "للسيوطى وهو فيما يعطينا أكثر قليلا وأفصح من ظهير الدين البيهقى الا أننا نجد أن جميع المصادر التى جاءت بعـده تخطئه فى كتابة اسم الراغب فنص السيوطى كما ورد فى البغية(١) (المفضل بن محمـــد الأصفهانى الراغب)قد خطأته جميع المصادر التى قامت بالتأريخ للراغب فيما بعد وذكرت أن اسمه هو محمد بن الفضل .

وما نلاحظه فيما سبق أنه ليس هناك اتفاق على اسمه كما أنه لم تبذل أية محاولـــة لتحقيق اسمه ونسبه .

ومن المصادر التى تناولت الراغب أيضا "كشف الظنون "حيث قام حاجى خليفـــة بايراد تعريف كامل لاسم الراغب حين تحدث عن كتاب المفردات فيقول : (٢)

كتاب "المفردات فى اللغة "لأبى القاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغـب الأصفهانـــى) .

أما مصباح السعادة فقد تناول الراغب بتعريفين مرة فى الكلام عن علم المحاضرة ومرة حين عده من المفسرين فجاء التعريفان كالآتـــى : (المفضل بن محمد الأصفهانى أبوالقاســم الراغب وهو بهذا يكون قد تناوله مرة بالمفضل ومرة بالفضل ،وهذا الازدواج فى اســـم الراغب نجده كثيرا فى كتب المؤرخين فمرة يكتب ومرة يكتب الفضل وهو اختلاف بسيـــط لا يغير من الأمر شيئا .

---

١ - ٣٩٦٩٥

٢ -ص ١٧٧٣

أما بقية المصادر التى تناولت الراغب بعد ذلك فكلها حديثة منها معجم المطبوعات العربية حيث ورد فيه (١) (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل) بن محمد المعروف بالراغب ويسميه السيوطى المفضل بن محمد الراغب) . وهديه العارفين لاسماعيل باشا البغدادى فقد ورد فيه (الحسين بن محمد بن مفضل ،الامام أبوالقاسم المعروف بالراغب الاصفهانى) أما قاموس الاعلام فقد ورد الاسم فيه كالآتى (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل) .

وآخر تلك المصادر هى دائرة المعارف (٢) فقد تناولت الراغب باسم جهده ولكنها خطأت السيوطى (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل وفى بعض الروايات الفضل وقد وخطأت فيه خطأ السيوطى السيوطى المفضل بن محمد) .

ننتقل بعد ذلك فى البحث عن اسمه ونسبه الى كتب الشيعة الذين تناولوه .

وأولى الملاحظ التى نلاحظها فى هذه الكتب أنها قد تناولت الراغب بشئ من التفصيل أكثر من مؤرخى أهل السنة كما أنهم أيضا قد قاموا بدراسات لآرائه وتراثه على أن أهم ما اهتموا به كتبه ومؤلفاته .وأول المصادر الشيعية التى تناولت الراغب كتاب " روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات " لمحمد باقر بن الحاجى أمير زين العابدين الموسوى الخوانسارى الاصفهانى من علماء القرن التاسع الهجرى وقد ضمن كتابه هذا تراجم العلماء والحكماء والأدباء ورتبه على حروف المعجم وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه من أهل أصفهان نفر بلدة الراغب - كما أنه قد قام فيه بالتصدى لتحقيق مذهب الراغب بالاضافة الى أنه أشار إلى المصادر التى استقى منها معلوماته وقد اهتم بان يرد اسم الراغب كاملا مع بعض المديح له

..... ابن محمد بن المفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى)ثم يرد بعد ذلك نفر السيوطى ولكنه غفل عن تحقيق النسب والسبب فى

---

١ - ص ٩٢١

ص ٢٤٩ ج ٢

ذلك أنه قد جاء بهذا النص لا للكلام عن اسم الراغب وكنيته ولكن لتحقيق مذهبه . ومن الغريب أنه في هذا الكتاب حين تصدى لنقد نص السيوطي في تحقيق مذهبه أن قال (. . ولم يرد على ما نقلنا وذلك لعدم بصيرته بحال الرجل كما عرفته وستعرف مع اشتباهه الكثير من اسمه ونسبه وطبقته)الا أنه قد أورد نصين تناولا اسم الراغب وهذان النصان غير موجودين الآن أحدهما لصاحب معجم الأدباء

: الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني)ويبدو أن ترجمة الراغب في معجم الادباء موجودة في الجزء المفقود منه حيث لم نعثر في المعجم على ترجمة للراغب والنص الآخر لكتاب تاريخ أخبار البشر وهذا الكتاب أيضا غير موجود الآن الا أنه أيضا لم يهتم باستخراج اسم الراغب منه واكتفى بنقل كنيته وهي أبوالقاسم الأصفهاني وان كان غيره قد اعتمد على هذا الكتاب في استخراج اسم الراغب .

والمصدر الثاني من كتب الشيعة التي تناولت الراغب هو كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين الحسيني العاملي وهو كتاب كبير يتعدى الثلاثين جزءا , قد مهد المؤلف للكتابة عن أمراء وحكماء وأدباء الشيعة . وهذا الكتاب هو أكمل المصادر حيث يتناول الراغب من وجوه عديدة واهتم فيه بمحاولة تحقيق اسمه ومذهبه علاوة على ايراده جميع مؤلفات الراغب وقد أورد العاملي اسم الراغب كالآتي :

(أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل أو الفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني)

وهو بهذا يكون قد اختار بين نص السيوطي والنصوص الأخرى الا أنه يأخذ على السيوطي أنه قد سماه المفضل بن محمد الأصفهاني مع أن اسمه الحسين وهو بهذا لم يهتم بالاختلاف بين الفضل والمفضل ومحمد بن المفضل والمفضل ابن محمد وقد أورد أيضا نصا لكتاب آخر تناول الراغب وهو كتاب "رياض العلماء" وهو أيضا غير موجود وتعريفه

الراغب فى هذا الكتاب هو الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصبهانى) .

يبقى بعد ذلك آخر هذه المصادر الشيعية وهو كتاب " الذريعة الى تصانيف الشيعة " لآغا بزرك الطهرانى والمؤلف فى هذا الكتاب قد قام باستعراض كتب أهل الشيعة مع نبذة مختصرة لأسماء المؤلفين . فاسم كتاب الراغب الذريعة الى مكارم الشريعة كتب آغا بزرك (الذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ، الشيخ أبى القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المتوفى سنة ٥٦٥ هـ كما أرخ فى تاريخ أخبار البشر) .

وبهذا الصدر نكون قد انتهينا من القسم الثانى من تحقيق اسمه ونسبه على هذا القسم أن مؤرخى الشيعة قد تناولوا الراغب بدقة أكثر من مؤرخى أهل السنة وأولوه اهتماما كبيرا لم يحظ به عند غيرها وكما سنرى فى الفصل القادم حين نتحدث عن حياته ومذهبه ولا نترك هذا الجزء قبل أن نشير الى أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة قد اعتمدوا على ثلاثة مصادر :

١ - تاريخ أخبار البشر .

٢ - سير الإسماعيلية

٣ - رياض العلماء .

ويبدو أن هذه المصادر قد تناولت الراغب بتفصيل كبير ودراسة أكبر وكنا نود الرجوع الى هذه المصادر غير أننا لم نستطع العثور عليها وذلك أن كتب الشيعة كما هو معروف غير متوفرة لدينا كما أنه من المحتمل أن تكون هذه الكتب قد فقدت .

وننتقل الآن الى تحقيق اسم الراغب من مقدمات كتبه وأول هذه الكتب - " كتاب المفردات فى غريب القرآن " وهو كتاب منشور وفيه يلاحظ أن الناشر قد أورد اسم المؤلف محرفا عن الاسم الذى جاء بمقدمة المؤلف نفسه فتعريف الاسم كما جاء بمقدمة

الناشر هو (أبوالقاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الاصفهانى) .

أما ما جاء بمقدمة المؤلف فهو (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب) و

ولسنا ندرى لماذا قام الناشر بهذا التحريف والتناقض بين المقدمتين وكان الأولـــــى

بـ(إيراد التعريفين كما هو ظاهر فى الكتاب حيث كتب على صدرهما (هـــــذا

كتاب ..... المعروف بالراغـــــب

الأصفهانى)وفى مقدمة المؤلف (قال الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضـــل

الراغب)والمقدمة الثانية هى مقدمة كتاب "المحاضرات " قد قام الناشر بطبع الكتـــــاب

دون أى تعريف بالمؤلف وقد جاء اسم الراغب فى مقدمة الكتاب للراغب نفسه (الشيـــخ

أبوالقاسم الحسين بن محمد المفضل الراغب) .

والمقدمة الثالثة التى هى مقدمة كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين وفيهـــا

ورد اسمه (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) .

والمقدمة الرابعة هى مقدمة كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة وجاء الاسم فيها (الشيـــخ

أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) .

أما مقدمة التفسير فلم يرد فيها الاسم كاملا ،وعلى هذا فيكون الاسم قد توحد فـــى

ثلاثة من كتبه وهى المحاضرات وتفصيل النشأتين والذريعة وقد جاء الاسم فيهم (الشيـــخ

أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) ،أما كتاب المفردات سواء المطبوع منـــه

أو المخطوط فقد جاء الاسم فيه (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) .

وبهذا فلا يكون الاختلاف كبيرا فى صحة الاسم فى مقدمات كتبه ويكون الاختـــــلاف

محصورا بين الفضل والمفضل .

ومن هذا الحصر لأسماء الراغب وكنيته وألقابه فى كتب المؤرخين ومقدمات كتبه نلاحظ ان :

١ -لم يأت الاسم كاملا الا فى مقدمات كتبه ثم فى كتب مؤرخى الشيعة .

٢ -أما السيوطى قد أخطأ فى نقل اسم الراغب رغم وقوفه على كتبه كما ذكر .

٣ ـ أن كثيرا من المؤرخين قد قاموا بتحريف الاسم من ناحية نزع أداة التعريف من أسماء وهو خطأ قد يبدو بسيطا في نظر كثير من الباحثين ولكنه في الواقع هام جدا بالنسبة لدراستنا نظرا لارتباط الراغب ارتباطا وثيقا بأهل الشيعة .

٤ ـ ان أغلب الكتب قد اتفقت على أن كنيته هي أبوالقاسم ولقبه الراغب ونسبه الاصبهاني واسمه الحسين .

ومن هذا وفيما تجمع عليه المصادر يرجح ان اسمه هو : أبوالقاسم الحسين بن محمد بن الفضل الاصبهاني .

الفصـــل الثانـــى

حياتـــه ومولـــــده

بعد أن انتهينا من تحقيق اسم الراغب الأصفهانى يجدر بنا أن ننتقل الى التأريخ للجانب الثانى له وهو حياته ومذهبه ،وهنا فاننا نجد أن الأمر يزداد صعوبة وبضيـــق الأفق بالنسبة لهذا الرجل . ولقد كان هذا الأمر جديرا بأن يدفعنا للقفز من هـــذا الفصل الى الذى يليه وهو ما أوضحنا أمره فى مدخل هذا الباب حين تكلمنا عن أركـــان الشخصية وأنواعها وبينا أن الراغب من الشخصيات التى فرضت نفسها بأعمالها وليـــــس بما فى حياتها الا أن ما بين أيدينا وان كان قليلا بالاضافة الى ما نستشفه من دراســـة مؤلفاته وهو أقرب للاستنتاج منه للتقرير نستطيع أن نلقى به بعض الضوء وذلك حين نبحث فى كتب المؤرخين عنه فاننا لا نجد له أثرا الا بضعة سطور لا تفصح عنه شيئا . وكما سبق أن ظننا من أن المؤرخين الذين تناولوا الراغب ينقسمون الى قسمين . قسم سنى وقســـم شيعى أو كما يحلو لبعض مؤرخى الشيعة تناوله العامة والخاصة هنا هم مؤرخو الشيعة.

مولـــــــده :

لم تذكر كتب المؤرخين تاريخ ولادته ولا مكان نشأته وان كانوا قد ذكروا تاريخ وفاتـــه ولكن الأمر اليقين أنه قد عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وقد أجمعـــت على هذا معظم المصادر وأنه تنقل بين البيئتين رحل الى الثانية فى أواخر أيامـــــه فالمفروخى (١) حين قام بحصر علماء القرن الخامس بأصفهان يذكره بأنه من المتأخريـــن الذين جاءوا فى نهاية القرن الرابع فيقول تحت عنوان (متأخرى أهل العلم بأصبهـــان) : (ثم أتبعهم بذكر المتبحرين فى النحو والاعراب المتبصرين بغرائب الأبنية ولغـــــات

---

١ ـ محاسن أصفهان/المفروخى ص ٣٢

الأعراب . . . . المصنفين للاشعار المنقحة والمخترعين للمعاني المستطرفة في العربية والفارسية والموقعين المحسنين انتشاء . والمترسلين المجيدين املاء ولم أفرده طبقة من الطبقات عن اخوانها اذا الكل حاصلة على التشارك متواصلة التشابك فمن متقدمهم . . . . . وأبوالقاسم الراغب)أى متقدمى المتأخرين .

كذلك ذكره الزركلى فى قاموسه الأعلام على أنه من أهل أصفهان أما عن انتقاله منها فلا تعطينا المصادر شيئا عن سبب هذا الانتقال ومغادرته لها فيذكر أحمد عطية فى القاموس الاعلامى حين تكلم عن الذين تخرجوا من أصفهان الراغب الأصفهانى (فقيه وأديب وهو الحسين بن محمد بن المفضل عاش ابان القرن الخامس الهجرى وسكن بغداد ،كذلك اسماعيل باشا البغدادى فى [illegible] الامام أبوالقاسم المعروف بالراغب الأصفهانى نزيل بغداد)كذلك فيما ينقل السيد محسن الأمين العاملى فى كتابه "أعيان الشيعة عن كتاب الروضات(الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصفهان) .

أما الخوانسارى فى "الروضات فيتفق معهم بأن وفاته لم تكن بأصفهان كما نقل عن كتاب تاريخ أخبار البشر .

ومن هذا يتبين لنا أنه قد عاش فترة حياته الأولى فى أصفهان ثم انتقل منها الى بغداد حيث توفى بها ،وعن وفاته هناك شبه اجماع بين المصادر على أنها فى سنة ٥٠٢ هـ غير أن بعض المصادر قد أرخت تاريخا غير هذا فاسماعيل باشا البغدادى يذكر انه توفى سنة ٥٠٠ هـ كذلك محمد كرد على فى نشره لكتاب "تاريخ حكماء الاسلام "حين علق على اسم الراغب (توفى الراغب سنة ٤٠٢ هـ فى الروايات أى فى أول المائة الخامسة)ثم عاد بعد ذلك فى كتابه "كنوز الأجداد "وقرر أن وفاته كانت فى سنة ٥٠٢ هـ أما الخوانسارى فيذكر تاريخا آخر وهو سنة ٥٦٥ هـ ثم يعقب على هذا بقوله

(وذلك قبل وفاة جار الله الزمخشري) . كذلك أفابرزك الطهراني فانه ينقل أيضا عـــن تاريخ أخبار البشر أن الوفاة كانت سنة ٥٦٥ هـ .

وقد قام السيد محسن الأمين العاملي بتحقيق سنة وفاة الراغب ونقد هذه المصـادر المخالفة(١) وأبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل أو الفضل بن محمد المعـــروف بالراغب الأصفهاني توفي سنة ٥٠٢ هـ - وفي كشف الظنون في أخلاق راغبخمسمائـــة ونيف وفي الروضات الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصفهان وفي بغية الوعاة أنه كان فـــي أوائل المائة الخامسة ولكن الصواب في أوائل المائة السادسة وأخطأ أيضا في اسم فسطاه المفضل بن محمد الأصفهاني مع أن اسمه الحسين وفي الروضات صفحة ٢٥٦ هـ عن تاريخ أخبار البشر أنه توفي سنة ٥٦٥ هـ وهو غلط فانه قال بعد ذلك أن وفاته قبل وفاة جـــار الله الزمخشري مع أن الزمخشري توفي سنة ٨٣٥ هـ ويأتي عن كشف الظنون أن الغزالي كان يستصحب كتاب الزريعة للمترجم والغزالي قد توفي سنة ٥٠٥ هـ)وفي هذا تتفق معه دائرة المعارف الاسلامية والواقع فان العاملي هو المؤرخ الوحيد الذي تعرض لشخصيـــة الراغب بشئ كن التدقيق ن بين جميع من تناولوه فقد اهتم بتحقيق الاسم والوفاةوللمناة والمذهب ولكن بصورة ضيقة ومقاله مقتضية فمن الثابت فعلا أن الغزالي كان يستصحـــب معه كتاب " الزريعة " (٢)الى مكارم الشريعة حتى أن بعض المؤرخين عدوه من كتبـــه كما سياه في خاتمة كتاب " احياء" علوم الدين وعلى هذا فلابد أنه توفي قبل الامـــام الغزالـــي أو حتى عاصره على الأقل كذلك من ذكرهأنه توفي. قبل جار الله الزمخشـــري والمعروف بان الزمخشري قد توفي سنة ٨٣٥ هـ .

---

١ - أعيان الشيعة/السيد محسن الأمين العاملي ص ٢٢٠

٢ - دائرة المعارف الاسلامية (مادة راغب)

الفصـــل الثالـــث

شخصيـــة الراغـــب :

تتجلى شخصية الراغب من خلال تآليفه (وليس من خلال مادته)ذلك أنه لا يتكلـــم أبدا عن نفسه أوعمن لقيهم وأخذ عنهم ،انما هي تآليفه فقط التي تعطينا تلك الصـــورة عنه والواقع فبرغم ما تعطينا هذه التآليف من فائدة فانها توقعنا أيضا في حيرة كبيـــرة فصفة الالتزام التي يلتزم بها العالم أمام علمه غير موجودة عند الراغب ونحن نعتني هنـــا بالالتزام التخصصي فعالم اللغة يكتب في اللغة ومحيطها وكذلك عالم التفسير وغيره أمـــا بالنسبة للراغب فالوضع يختلف ذلك أنه لم يؤلف كتابين في علم واحد بل جاءت كتبه كمـــل واحد في علم مستقل وقد أدى هذا بالتالي بكثير من المؤرخين لتعداد الترجمة له فيمـــا ذهب منهم في تصنيف كتبه ،فمن خلال ما ألف تظهر لنا جوانب عديدة في شخصيته وعلـى هذا فقد تناوله المؤرخون كل فيما نظر ووقع تحت يده من كتبه فالبيهقي (١)عده حكيمـــا من أصحاب الصنفات ،والسيوطي (٢)أيضا عده من أصحاب الصنفات وذلك من تآليف عديدة وقف عليها (المفضل بن محمد الأصفهاني الراغب صاحب الصنفات كـــان في أوائل المائة الخامسة له وفردات القرآن ـ أفانين البلاغة ـ والمحاضرات وقفت علـــى الثلاثة)كذلك يرى الزركـــلي أنه (أديب كبير من العلماء)أما أحمد عطية في القامـــوس الاعلامي فيذكره بانه خطيب وأديب لتعدد دراساته (الراغب الأصفهاني فقيه وأديـــب وهو الحسين بن محمد بن المفضل ،عاش ابان القرن الخامس الهجري وسكن بغـــداد واشتغل بعلوم التفسير والحكمة والأدب)ونحن نرى أن الذي دفعه الى وصف الراغـــب بهذا هي الكتب التي أوردها له في التعريف به فكل كتاب متصل بعلم يختلف عن الآخر

---

١ ـ تتمة صوان الحكمة/البيهقي ص ١٠٤
٢ ـ بغية الوعاة/السيوطي ص ٣٩٦

فمن الكتب التي ذكرها للراغب وهي :

١ ـ الزريعة الى مكارم الشريعة وهو كتاب في التصوف .

٢ ـ المفردات في غريب القرآن وهو كتاب في اللغة .

٣ ـ محاضرات الأدباء وهو كتاب في النوادر والروايات .

٤ ـ أفانين البلاغة وهو كتاب متصل بالأساليب وأقسام البلاغة .

كذلك طاش كبر زادة(١) يعتبره من أصحاب الصنفات أما سركيس(٢) فيعرفه بأنه صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة والكلام، وسيرد اسم الرجل كما هو على صفحة فانه صاحب اللغة والعربية لكتابة المفردات والحديث لكتابه المحاضرات والأخلاق لكتابه تفصيل النشأتين والحكمة لكتابه الزريعة الى مكارم الشريعة ويبدو أنه قد نقل هذا التعريف عن الخوانساري وبهذا فان هذه الطبقة من المؤرخين لم يستطيعوا تحديد صفة وشخصية الراغب الأصفهاني فأطلقوا ما شاءوا من أوصاف عليه وفقا لما وقع تحت أيديهم من كتب .

أما الطبقة الأخرى من المؤرخين ونعني بها طبقة الشيعة فالراغب يعني عندهم الكثير فهو ليس صاحب الصفات المذكورة فقط ولكنه أعلى وأكبر من هذا بكثير فهو في نظرهم حكيم صوفي في المقام الأول ولا يفوتنا هنا ما نعني به الحكمة عند الشيعة بل عند الراغب أيضا فيما أورد عن هذه الكلمة بمفرداته (٣) (والحكمة اصابة الحق بالعلم والعقل فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وايجادها على غاية الأحكام ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل " ولقد آتينا لقمان الحكمة ") أما عن الفقه فهو عنده أخص من العلم ففيه يقول (٤) (الفقه هو

---

١ ـ مصباح السعادة/طاش كبر زاده ص ٢٢٦
٢ ـ معجم المطبوعات/سركيس ص ٩٢١
٣ ـ مفردات غريب القرآن /الراغب الاصفهاني (مادة الحكمة)
٤ ـ نثر الدرر/ (مادة فقه)

التوصل الى علم غائب بعلم شاهد وهو أخص من العلم، قال : فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا - ولكن - لا يعقلون) الى غير ذلك من الآيات والمعنى العالم بأحكام الشريعة يقال فقاهة اذا صار فقيها وفقه أى فهم وفقهه أى فهمه وتفقه اذا طلبه فتخصص به قال : " يتفقهوا فى الدين ") .

فالراغب اذن فى نظر الشيعة من أصاب الحق بعقل وعلم وتفقه وأحاط بأحكام الشريعة بهذا كان وصفهم له بالحكيم والفقيه والصوفى . فالخوانسارى أورد له صفات كثيرة وهى وان كان بعضها عادى فان فيها أيضا ما يحير فما جاء بالتعريف به (الامام الأديب والحافظ العجيب أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة والكلام وعلوم الأوائل وغير ذلك ، فضله أشهر من أن يوصف ووصفه أجل من أن يعرف وكفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة وفيما تحقق له من اللغة خاصة) (١) كذلك أورد الخوانسارى تعريف صاحب معجم الأدباء للراغب (. . . أحد أعلام العلم بغير فن من العلوم أديبها وحكيمها) ثم يورد بعد ذلك عند الحديث عن وفاته ناقلا عن كتاب أخبار البشر (وكانت وفاته كما فى تاريخ أخبار البشر معبرا عنه بالشيخ أبى القاسم الأصفهانى أحد الحفاظ) ، فى هذا فليس بين أيدينا دراسات تؤيد هذا الوصف سوى دراساته القرآنية التى تدل على دراسة عريضة

ويدفعنا الى الاعتقاد بأن الراغب الأصفهانى كان يقوم بالتدريس فى أحد المعاهد التى كانت منتشرة فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت كما تدل قصة دخول البيضاوى لشيراز (٢) لتولى القضاء بها فصادف معهدا أو مدرسة يقوم فيها شيخ بالتدريس . ويظهر هذا جليا من استعراض مؤلفاته فهى جميعها مكملة لبعض منها لما قبلها - مجال الدراسة فيها الانسان ما له وما عليه .

---

١ - روضات الجنات/الخوانسارى ص ٢٤٩
٢ - كشف الظنون/حاجى خليفة ص ٦٦٥

أما العاملى فقد قام بجمع أقوال العلماء فيه (١) اذ يقول (فضله أشهر من أن يذكر وعلمه أعرف من أن يوصف ومؤلفاته سائرة مسير الشمس والقمر وفى رياض العلماء : الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصفهانى العالم الفاضل الأديب المفسر اللغوى المتكلم الحكيم الصوفى المعروف بالراغب الأصفهانى كان من مشاهير حكماء الاسلام) .

ومن هذه الأقوال فاننا نرى أن مؤرخى الشيعة قد خلعوا عليه أوساطا وألقابا لا تعطى جزافا فهو لديهم امام أى شخص يقتدى به وحافظ ومفسر ولغوى وأديب آثار الاعجاب وحظى القبول . وكتابه "المحاضرات" يعطينا صورة أخرى له صورة عن رجل الدنيا الذى عرف خيرها وشرها وسرورها وحزنها أو كما ظرفا ملئ ظرفا ،ووعاء عشى جدا وسخفا من شاء وجد منه ناسكا يعزيه ويبكيه ومن شاء صادف منه فاتكا يضحكه ويلهيه)فقد جمع فى هذا الكتاب أطرافا شتى فمن الحديث عن الدين والصلاة والسيادة والعقل والهوى والكتابة والفضيلة والعفة نراه بجانب هذا يتحدث عن الزنى والمجون والخمر واللواط بأنكه ما حكى عنه وأنكت ما قيل فيهم . فقد كان يرى أن لكل مجال كلام ولكل مقام مقالة (ومن لا يتحلى فى مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصرى صورة ممثلة) .

---

١ -أعيان الشيعة/للعاملى ص ٢٢٠

الفصـــــل الرابـــــع

مذهبـــــــه :

ما زلنا ونحن في هذا الفصل نحقق مذهبه نحاول أن نجلي بعض الغموض عن شخصيـة الراغب ولعل التحقيق لمذهبه أشد تعقيدا وغموضا من تحقيق اسمه وحياته وذلك أن تقريـر المذهب يرتبط ارتباطا وثيقا بناحيتين أولاهما ثقافته وثانيهما شخصيته .

فهناك ارتباط وثيق بين الثقافة والشخصية فانهما معا يعنيان حياة الرجل العامـــة والثقافية ولقد درج الانسان منذ نشأة الخليقة سواء في طوطميته أو وحدانيته أن يتلقـــى معتقداته الدينية ومذاهبه فيها عن طريقين :

١ ـ اما وراثة عن أجداده وأسلافه كان ينشأ على دين آبائه وأجداده .

٢ ـ أو بالايمان فيما يعتقده أنه حق .

فالأولى ترتبط بالبيئة والثانية ترتبط بالثقافة : فتلك التي ترتبط بالبيئة فان المعيار فيها هو العادة والتقليد فهذا الانسان الذي ينشأ في مجال سواء أكان اسلاميا أو غيـــره تغرز فيه قيم هذا الدين ومبادئه منذ الصغر فينشأ على هذا سائرا على منوال من سبقـــوه وهذه تهمة كما فيعتنق مبادئهم ويمارس عاداتهم ويأخذ بتقاليدهم ويكون صعبا عليه التغيير والتبديل ويدلنا التاريخ على كثير من هذا فكم من أنبياء وحكماء رجعوا لا لشـــيء الا لأنهم حاولوا أن يغيروا من عقيدة قومهم . والثانية التي ترتبط بالثقافة فهي نفس هـــذا الانسان الأول في بيئته ووسط أهله بعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ولكن لسبب ما قـــرر أن يغير من معتقداته حيث اصبح ايمانه بها ضعيفا أو اصبح لا يؤمن بها وهذا السبـــب لا يخرج عن ثلاثـــة :

١ ـ اما بهداية من الله ويختص بهذا الأنبياء والحكماء .

٢ - واما بتأثير ثقافته التى فتحت له مجالات أخرى يفكر ويقارن ليهتدى وهو بهـــذا يغير ويبدل معتقداته وآراءه ويصبح مخالفا للبيئة التى يعيش فيها .

٣ - واما بتأثير الجوار كأن يكون مجاورا لبيئة أخرى بها قوم على غير معتقداته فيتأثـــر بهم وأمثال هذا النوع كثير فى الأمة حيث قامت العناصر اليهودية والمسيحية والمجوسيـــة بالتأثير فى بعض الجماعات الاسلامية كالمتصوفة والشيعة على اننا نقرر أيضا أن أولئك الذين أخذوا الايمان بالاعتقاد نتيجة تحكيم العقل فيما فكروا أنهم لا يتركون معتقداتهم السابقـــة كلية بل تكون هناك رواسب منها فى عقولهم الباطنة تصبغ معظم تلك المعتقدات الجديـــدة ولنا فى هذا أمثلة كثيرة فى اليهود الذين دخلوا الاسلام وحملوا معهم تلك الرواسبـــب اليهودية من تجسيم وتشبيه وتلك العناصر المجوسية التى بثرت فكر الشائعين فى العالم الإسلامى كذلك بعض المعتقدات الأخرى مثل الرجعة والمهدية والبداء وبعض الطوائـــف المسيحية الذين مهدوا لانتشار مبدأ الحلول والظهور .

فاذا ما حاولنا تطبيق هذا على الراغب لوجدنا أنه قد نشأ فى بيئة اسلامية غير عربيـــة تدين بمذهب الشيعة بمختلف أنواعه كذلك يوجد بها بعض المجتمعات السنية على مذهـــب أبى حنيفة والشافعى وأيضا تغص بالكثير من الرواسب الفارسية القديمة فهل سار الراغب فـــى تيار أهل بيئته ؟ فدان بما يعتقدون أو أنه بفضل ثقافته الواسعة وفكره المتحرر قد غايـــر القوم وانحاز الى مذهب آخر هداه اليه فكره وعقله ؟ وهل كان للجوار أثره فى هذا ؟ حيث كانت تجاوره مجتمعات سنية كثيرة وبعض الفرق المجوسية المصبوغة بصبغة اسلامية .

والواقع فان ما دفعنا الى هذا هو التنازع الفرق الاسلامية لهذا الرجل من جانب ومن جانب آخر فانه لم يلتزم بمنهج أهل مذهب معين كما أنه لم ينص صراحة أو مواربة عن مذهبه مما حدا بالمؤرخين أن يحتاروا فى نسبته وبصفة كل واحد كيفما يريد .

حقا ان الراغب قد نشأ فى بيئة شيعية بين أهل يتشيعون لأهل البيت الكريم يدفعهـــم

الى هذا أمران :

أولهما : هو بعض الرواسب القديمة المتصلة بعقيدتهم التى دأبت على تمثيل [illegible] فى صلة [illegible] فكان لابد من أن يكون هناك من يمثل تلك العقيدة وليس أحق من تمثيلها غير أهل البيت الكريم نسل الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : وهو أمر سياسى اذ أنهم كانوا يرون أن أهل البيت هم أحق الناس بالخلافة وأكرم عليهم وذلك لصلة النسب التى نشأت بينهم وبين الحسين بن على رضى الله عنه اذ أنه بزواجه من ابنة كسرى قد فتح باب المصاهرة بين العرب والعجم ويكونوا قد صاهروا الرسول الكريم وعلى هذا تشايعوا لأبناء الحسين رضى الله عنه الذين أتوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم وكسرى ملك الفرس . فالتشيع اذا والغلو فيه ليس غريبا على تلك البيئة أو مضادا لعقائدها بل وافق هواهم وسكن فى قلوبهم وفى هذا يقول أبوالأسود الدؤلى (١)

وأن وليدا بين كسرى وهاشم اكرم من نيطت عليهم التمائم

هو نور الله موضع سره ومنبع ينبوع الامامة عالم

ولكن ينبغى لنا هنا أن نتريث قليلا أمام فكرة التشيع ومرد ذلك أن المؤرخين قد ربطوا دائما بين الاعتقاد والعمل التى كانت أصلا فكرة الخوارج بأنه لاعقد بدون عمل أى لاايمان بدون قول وعمل . فهل كل من أحب أهل البيت يعتبر شيعيا أم أن هناك صفات وعقائد معينة يؤمن بها الشيعى ويكلف بها .

فحب الرسول (ص) وأهل بيته فرض فرض على المسلمين جميعا كما أنه هوى لايقاوم وفى هذا يردد الامام الشافعى (٢) :

لو كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض (٣)

---

١ - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام/ج ٢ د .على سامى النشار ص ١٣١

٢ - نفر الصدر، ص ١٧٠

٣ - الملل والنحل ،ج ١ ص ١٥٩

وعما يقال أيضا من أن الامام أبوحنيفة كان هواه مع الزيود إحدى فرق الشيعة وعن الشيعة يورد الشهرستاني هذا التعريف : (١)

(هم الذين شايعوا عليا عليه السلام على الخصوص وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصاية إمـــا جليا وإما خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكـــون من غيره أو بتقية من عنده . قالوا وليس في الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامـــة وينتصب الامامة بنصبهم بل هي قضية اصولية . هو ركن الدين ،لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله وتفويضه إلى العامة وإرساله ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبرى قولا وفعلا وعقدا إلا في حالة التقية ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ولهم في مقدمة الإمامة كلام وخلاف كثير وعند كـــل تعديد وتوقف مقالة ومذهب وضبط وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة واسماعيليـــة وبعضهم يميل في الأصول الى الاعتزال وبعضهم الى السنة وبعضهم الى التشبيه) .

والواقع ان هذا النص الهام للشهرستاني يضع أيدينا على الأصول الأولى للعصبيت العامة للتشيع وكذلك إلى إختلاط هذه المذاهب بعضها ببعض وساعدت الأصول الاعتقادية من فرقة إلى أخرى ذلك أننا نرى تلك الأصول قد ابتدأت في التوزع ومالت الفرق إلى التفتت والإنزواء وكان هذا هو ما دعا كثيرا من المؤرخين الى الخلط بين الفرق والاضطراب في تحقيق مذاهب العلماء ومثالنا في هذا هو الراغب الأصفهاني الذي تنازعته الفرق ونسبتـــه كل فرقة الـــى نفسها ويدلنا على هذا من نص الشهرستاني تلك الفقرة التي يقول فيها (وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وبعضهم يميل في الأصول إلى الإعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه) . اذا فقد كان هناك شيعة استطاعوا التغلب على الغلو وعلى بعض الأصول التي تعتبر ركنا هاما في العقيدة الشيعية كالزيود مثلا الذين مالـــوا

---

١ - الملل والنحل ،ج ١ ص

الى المعتزلة واعتنقوا أصولهم والجعفرية والعدلية الذين مالا الى أهل السنة . فعن الزيود يقول الشهرستاني (. . . . وزيدا بن على لما كان مذهبهم هذا المذهب أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم فتتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة مع اعتقاد واصل بأن جده على بن أبى طالب فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأصحاب الشام ما كان على يقين من الصواب وأن أحد الفريقين منهما كان على خطأ لا بعينه فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلها معتزلة) . ثم هناك أيضا الجعفرية التى مالت الى أهل السنة والعدلية التى نظرت الى الحياة نظرة مادية وهى نظرة الواقع والاعتراف بما هو موجود ونظرة روحية كما أن هناك أيضا بعض الفرق التى مالت الى الاعتقاد بالارجاء والقدر والجبر .

ومن هذا نستطيع القول بأنه فى تلك الفترة التى نقدرها فيما بين سنة ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ كانت روح الغلو والتعصب قد خفت فأصبح هنا امتزاج بين الشيعة والسنة أو بين الشيعة والمعتزلة كما أن جهاد أهل السنة من اشاعرة وغيرها قد أتى ثماره حتى بين بلاد فلا فأصبحنا نرى بلادا يغلب عليها التشيع وأخرى يغلب عليها مذهب أهل السنة كما كان الحال فى بلاد الرى ويشهد بهذا أيضا تلك المناظرات التى دارت بين الفخر الرازى وبين من لقيهم من أهل هذه البلاد ولا عجب من أننا نرى أن أكبر امامين لأهل السنة وهما أبا حنيفة والشافعى قد تخرجا من البيت العلوى .

ومن هذا نرى أن الأصول الشيعية قد اتحدت مع الأصول الاعتزالية والسنية فلا عجب أن نظاهر أثر هذه الأصول عند الراغب فقد أرجعه المؤرخون بين الاعتزال والسنة وأول من وضع أيدينا على هذا هو السيوطى اذ يقول [١] (وقد كان ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد

---

١ - بغية الوعاة/السيوطى ص ٢٩٦

السلام ما نصه ذكر الامام فخر الدين الرازى فى أساس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال وهى فائدة حسنة فان كثيرا من الناس يظنون أنه معتزلى) . والعجيب أن السيوطى وقف على كتب الراغب كما أقر وكان ظنه أنه معتزلى وقد تابع السيوطى فى هذا جميع المؤرخين الذين أرخوا للراغب كحاجى خليفة وطاش كبر زادة وغيرهم ،فهو لديهم امام من أئمة السنة ويبدو أن منزلته كانت كبيرة لديهم لدرجة أنهم قرنوه بالغزالى والذى قيل بأنه كان يستصحب كتاب الزريعة معه لنفاسته ما حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا هذا الكتاب اليه .

والواقع أن ما حدا بالمؤرخين أن يضعوه فى نسق أهل السنة هو أن الراغب لم يسلك مسلك غلاة الشيعة أو بعض فرقتها فلم يكفر الخلفاء الثلاثة بل وضع عليا رابعهم (١)ولم يعاد معاوية ولم يشطح فى تفسيره أو تأويله تلك الشطحات التى انفردت بها الفرق الشيعية بل كان يميل دائما الى الواقع وما يعطيه له النص ظاهرا وتأويلا وعلى هذا فانه يكون قد سلك مسلك أهل السنة وعلى هذا أيضا عد من المعتزلة وذلك لبعض الآراء التى وردت فى معرض كتاباته ومنها كلامه عن العقل (٢)ونظرته اليه فالعقل لديه هو الجوهر الأول والعقول الأول لفهم الأشياء وطبيعتها وكذلك هو المحك الأول لفهم الوجود ومعرفة الخالق وان الانسان استحق خلافة الله تعالى به وهو لديه نوعان : غريزى وهو القوة المتهيأة لقبول العلم ،ومستفاد وهو الذى تتقولى به تلك القوة وهو اما بلا اختيار فلا يعرف كيف ومن أين وباختيار منه كذلك هو الذى يميز بين الانسان والحيوان وعلى هذا فالعقل لديه ملازم للشرع بل هما صنوان متلازمان لا ينفكان عن بعضهما وعلى هذا أرجع معرفة الله تعالى الى العقل وفى هذا يقول فى الباب الثامن "ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية وغاية ما يبلغه الانسان "(من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته) .

---

١ - المحاضرات/الراغب ص ٢١٢ جـ ٢
٢ - الذريعة الى مكارم الشريعة/الراغب ص ٦٦

كذلك عده المؤرخون من المعتزلة وذلك راجع الى منهجه فى الدراسات التى قام بهـــا حول الانسان وفيها يقول (١) (الانسان لما كان على هيئة العالم أوجد فيه كل ما أوجد فى العالم وكذلك أن فى العالم أشياء لا يتأتى اصلاحها وتهذيبها وكان مع ذلك عما أمر به وتقصير عما كلف) . كذلك سار الراغب على منهجهم فى تنزيه الصفات عن الله وهـــو أحد الاصول المعتزلية الهامة وان لم ينفرد لها بابا خاصا فى كتاباته ولكنه جعلها فـــى مفترق كلامـــه .

ويرى الراغب أيضا أن اللفظ ودلالته هو أساس الاختلاف الواقع بين الناس(٢) (والسبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان المعنى واللفظ أما ما كان من جهـــة المعنى فاما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة أو جهة الآلة التى تستعمل فى النظار . . . . أما ما كان من جهة اللفظ فاما أن يكون ذلك واقعا من جهتـــة مفردات اللفظ أو من جهة مركباته فان كان من مركبات اللفظ فاما أن يكون من حيث أن اللفظ مشترك بين المعنيين كالعين والمد ونحوهما أو يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام ثم مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقـــرر صورة ذلك الشئ فى نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادا تفاسدة فى الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسى . . . . ومن أجل ما وقع فى الألفاظ من الشبه قالت الحكماء يجب أن يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفـــظ فى الحقيقة لا يدل على المعنى الا بواسطة صورة ذلك اللفظ فى القلب ومتى لم يثبت صـــورة المعنى فى القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة) .

وهو فى هذا يوافق آراء المعتزلة الذين لا يأخذون بظواهر اللفظ .

---

١ - تفصيل النشأتين /الراغب ص ١٠٤

٢ - الذريعة الى مكارم الشريعة/الراغب ص ٤٤

ولكن رغم وضوح اعتزاليته فى هذا فاننا لا نستطيع أن نضعه فى نطاق المعتزلة واعتقد أن هذا انما هو مجرد توافق فى الآراء وليس اتباعا لهم أو اعتناقا لمذهبهم فقد يأبى فى جميع مؤلفاته أن يزج بنفسه فى فرقة من الفرق . ويرى أن حدوث هذا التوافق انما كان بتأثره بالثقافة اليونانية الواضحة فى كتاباته من ميله للتحديد والتقسيم وارجاع كل شئ الى العقل الذى هو فى الثقافة اليونانية الجوهر الأول ويدل على هذا استشهاده بأحاديث العقل الصادرة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والتى أرجعها بعض الباحثين (١) الى الأصول الأفلاطونية المحدثة ونفوا صدورها عن الرسول الكريم ومنها الحديث المشهور (٢) (أول ما خلق الله تعالى العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب) وفى هذا يرى الدكتور النشار أن هذا الحديث الذى اعتبره قدسيا انما كان فنومينون اسلاميون هم الذين انطقوا النبى اياه بلسان أفلاطونى غير أن علماء الحديث وفى مقدمتهم تقى الدين بن تيمية أثبتوا وضعه وصلته بالفلسفة اليونانية وهاجموه هجوما عنيفا . كذلك استشهاده لآراء أرسطو فى كتابه "المحاضرات" وأيضا آراءه عن العناصر التى وجد منها الانسان يظهر فيها أثر الفلسفة اليونانية وهو لا يخفى هذه الآثار فإننا نراه كثيرا ما يستشهد بآراء حكماء اليونان مما مكننا أن نضع أيدينا على مصادر ثقافته ونوعيتها . وأول ما يلاحظ لنا فى هذا أنه تثقف ثقافة شرقية وأعنى بها هنا تلك الثقافة الفارسية المزوجة بالثقافة اليونانية وبالأخص تلك اليونانية المحدثة فى العالم الاسلامى وهذا أمر طبيعى ففى تلك الحقبة كانت المعارك الأجنبية قد ترجمت وأهمها نشاط المعتزلة فى ترجمة الثقافة اليونانية وعناية الخليفة المأمون بها - نرى هذا واضحا فى جميع كتاباته فى مجال دراسته عن الانسان

---

١ - الذريعة/الراغب ص ٥٣
٢ - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام، ج ١ لعلى سامى النشار ص ١٩٣

في كتابه تفصيل النشأتين والذريعة الى مكارم الشريعة وفيها يقوم بدراسة الانسان بتركيبه وكيفية وجوده والنوازع الخيرة والشريرة التي توجد فيه وكيف يسمو بنفسه ويتبرأ من الأفعال الذميمة ليتطهر لكي يستحق خلافة الله على الأرض وكيف أن الله أعطاه العقل الذي هو جوهر الوجود بدون عوارض سابقة عليه فخلقه على صورة العالم أي أن الانسان مكتفي بنفسه ووجوده وجود مفارق عابرة يصنع عملا لمرحلة لا محققة فعلية بالتطهر وعبادة الخالق وهو في هذا يمزج تلك النظريات اليونانية القديمة بالصبغة الاسلامية يتلمسها في القرآن والحديث الشريف مثل قوله (١) (ويحتاج الرأي الى أربعة أشياء اثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير أحدهما أن يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام تفكروا في لا اله الا الله ولا تفكروا في الله قال تعالى "أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض" وقال تعالى "يبين لكم الآيات لعلكم تتفكرون") وقوله في كتاب "تفصيل النشأتين" في الباب العاشر (٢) (المقصود من العالم وايجاده شيئا بعد شيء هو أن يوجد الانسان فالغرض في الاركان أن يحصل منها النبات ومن النبات أن تحصل الحيوانات ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ومن الأجسام البشرية أن تحصل منها الأرواح الناطقة ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في أرضه فتتوصل بايفاد أحقها الى النعيم الأبدي كما دل الله تعالى عليه بقوله "اني جاعل في الارض خليفة" وجعل تعالى الانسان سلالة العالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى "ولقد كرمنا بني آدم وحملناه في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا") .

أما ما يدل على عدم اعتناقه اعتناقا كاملا لمذهب المعتزلة فهو ما جاء في كتاب الشريعة في باب الايمان والاسلام والتقى والبر (٣) (والشريعة جديرة أن يطلق اسم الايمان على من

---

١ - الذريعة/الراغب ص ٦٤

٢ - ص ٣٨

٣ - ص ٧١

يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ولا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافي الامام بخلاف ما ادعته المعتزلة بأنه لا يصح اطلاق المؤمن على الانسان ما لم يختبر في الأصول الخمسة ويوقف منه على الحقيقة ما عنده وفي هذا اقرار واضح منه على عدم متابعتهم في أصولهم الخمسة وهو بهذا ينفي شايعته لهم .

ويبدو أن شبهة المعتزلة التي نسب اليها الراغب قد أتت من اتجاهه اللغوي في التفسير فهو يذهب فيه مذاهبهم خاصة في كلامه عن العرش حيث يقول (١)

وعرش الله مما لا يعلمه البشر على الحقيقة الا باسم وليس كما يذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى عن ذلك لا محمولا .... وما يجري مجراه قيل هو اشارة الى مملكته وسلطانه لا الى مقره يتعالى عن ذلك) ومادة قدر (القدرة) اذا وصف بها الانسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما واذا وصف الله تعالى بها فهي نفي العجز عنه ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنا وان اطلق عليه لفظا) . فهو يسير في هاتين المادتين وغيرهما على منوال مفسري المعتزلة الذين نعوا أن تكون الصفات عين الذات فنزهوا الله عنها .

ومن هذا الاتجاه اللغوي عد الراغب من المعتزلة وتنازعه معهم أهل السنة حتى أننا نرى أن مؤرخا كبيرا كالخوانساري الذي يعد الراغب من أئمة الشيعة يرجع فيقول عنه (وكان من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته) .

اذا فالراغب لم يشايع فرقة بعينها ولم يأخذ الا ما يوافقه من الفرق المختلفة فحفظ بذلك نفسه من أن يزج بها في مشاكلهم ولكنا كما نرى لم يسلم من هذا والغريب أن مؤرخي أهل السنة والمعتزلة الذين تنازعوه لم يشيروا بشيء من قريب أو بعيد على شيعته أو آراء مؤرخي الشيعة فيه . والواقع فاتجاهات الراغب كانت دائما كثير الدهشة لغرابتها

---

١ - المفردات / الراغب (مادة عرش)

فمن ناحية كما رأينا من أنه قد سالم جميع الفرق والمذاهب فلم يتعرض لهم فى كتاباته الا فيما ندر، الا أننا نلاحظ فى هذا أن المذهب الوحيد الذى يتعرض له من قريب أو بعيد نصا أو تلميحا هو المذهب الشيعى ومن هذه الزاوية تلقفه مؤرخوا هذا المذهب وعدوه شيعيا بل من حكماء الشيعة وليس سهلا أن يختار الشيعة أحد العلماء ويعدوه منهم وذلك لما عرف عنهم من تشدد فى هذا المجال حتى عدوه من أصحاب المذهب المغلق وهم بهذا يجعلوننا نميل الى الظن بأن الراغب كان يبطن وان لم يكن من الغلاة وهى ظاهرة موجودة لدى الكثير من المذاهب الشيعية حتى وقتنا الحالى مثل الدروز فى لبنان مثلا كما أن هناك ممن تشيعوا كانوا من مذهب شبيه بمذهب الراغب الأصفهانى كالصاحب بن عباد مثلا الذى كان على مذهب الشيعة العدلية وهى احدى الفرق الشيعة التى أخذت الأمور بواقعها فوافقت على خلافة الخلفاء الراشدين وأقرتهم وكذلك خلافة الأمويين فهى ترى مبدأ الزعامة للواقع الموجود كذلك الجعفرية التى كانت تسير على مذاهب أهل السنة.

اذا فكون الراغب شيعيا ليس بغريب وان لم يستطع الكثيرون التوصل الى هذا حتى محمد كرد على وان أقره بانه كان له قبول العامة والخاصة(١) أى أهل السنة والشيعة وهو يعول على هذا ما بلغه من أخباره وليس عن تحقيق قام به .

ان أهم سند اعتمد عليه مؤرخوا الشيعة للدلالة على شيعيته هو كتاب "المحاضرات" وخاصة الفصل الذى كتبه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وقرن اسمه دائما بلفظ أمير المؤمنين رضى الله عنه هذا بالرغم من أنه كتب فى هذا الفصل أيضا عن الخلفاء الثلاثة السابقين لعلى رضى الله عنه إلا أنه فى كلامه عنه توسع فيه وأتى بمعظم ما يظهر أحقيته على بالرغم من وضعه رابعهم ولكنه سبق فأشار الى أن هذا الترتيب عفوى وقد اعتمد الخوانسارى على هذا الكتاب فى كتابه "روضات الجنات" والعاملى فى

---

١ - كنوز الأجداد / محمد كرد على ص ٢٦٨

كتابه "أعيان الشيعة" وعن الراغب يقول الخوانساري (١) (وفي بعض الكتب اختلف في تشيعه وكأنه لما يتراءى من تقويته جانب الحق في بعض مصنفاته وأنت خبير لأن مثل ذلك لو كان دليلا على أحقية الرجل لما وجد للباطل بعد صداق - كيف ولما يوجد بحمد الله لأشد النواصب الى الآن مصنف لم يكن فيه شئ من مديح أهل البيت وشطوا من مثالب مخالفتهم بالكناية أو التصريح واذا فالمرجع في تشخيص المذهب الحق الى الموافقة لأهله في جملة الضروريات والاقتفاء لآثارهم المحمودة في أصول المذهب وفروعه غير نعم في كثرة رواياته عن أهل البيت المعصومين وتعبيره عن سيدنا الامام الهمام علي بن أبي طالب دائما بأمير المؤمنين المطلق أما عن نعم السيوطي في التعريف بالراغب والذي يعده فيه من أئمة المذهب السني فيقول (٢) (- . . . . ولم يزد على ما قلناه وذلك لعدم

ثم يسترسل بعد ذلك بالنقل من كتاب "المحاضرات" فيؤيد شيعية الراغب .

أما العاملي فيذهب مذهبا آخر غير الخوانساري فهو ينفي عن الراغب سنيته ويؤيد اعتزاليته ليخرج منها الى شيعية الراغب بما سبق أن قلناه من التحام بعض الفرق الشيعية بالمعتزلة واعتناقهم آراءها في القرن الثاني الهجري ودخول المعتزلة في أحضان الشيعة في القرن الرابع والخامس الهجري فيقول : (أقول يؤيد تشيعه قول من قال أنه معتزلي فانهم كثيرا ما يخلطون بين الشيعي والمعتزلي بالتوافق في بعض الاصول) .

والواقع فان ما يدل على شيعية الراغب أشياء كثيرة متفرقة في كتبه نخرج منها بالآتي :

١ - قرنه دائما اسم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلقب أمير المؤمنين رضي الله عنه أو كرم الله وجهه وهو ما لم يفعله في الكلام عن باقي الخلفاء الذين تارة يذكرهم بالاسم منفردا أو قليلا يقرنهم برضي الله عنهم ولم يقل عنهم أبدا أمراء المؤمنين .

---

١ - روضات الجنات/الخوانساري ص ٢٤٩

٢ - نفس المصدر

٢ - قرنه اسم علي في بعض الأحوال بلفظ عليه السلام وهو ما لا يفعله الا شيعي .

٣ -

٤ -الرواية عن أئمة الشيعة أمثال الحسن وزيد بن علعفي وجعفر وزين العابدين رضي الله عنهم جميعا .

٥ -أخذه باعتقادات وآراء الشيعة في كثير من الأحيان كما يظهر في كلامه عن كون العقل والرسل هاديين الخلق الى الحق في كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة(١) (الله عز وجل رسولان الى خلائقه أحدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول ولا سبيل لأحد للانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن)ويشتم من هذا ايمانه بنظرية الامام المستقر والامام المستودع عند الشيعة وكذلك الامام الظاهر والباطن كما ذهب أيضا في كلامه عن العلم من أنه ظاهر وسري . كذلك ما يدل على أنه كان من الشيعة العدلية تلك الحكاية التي أوردها في كتابه الشريعة عند ذكر من يصلح لوعظ العامة(٢) و(وقيل لسلمى بن كهيل : ما لعلي رضي الله تعالى عنه رفضته العامة وله في كل خير شيء قاطع قال لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره) . كذلك اهداء كتابه المحاضرات فانه يهديه لشخص يطلق عليه لفظ سيدنا وهو لفظ لا يستخدمه الا الشيعة كذلك كتابه تفصيل النشأتين فانه يهديه للأستاذ الكريم وكتاب الشريعة يهديه للأخ الفاضل .

ومن هذا يتجلى لنا بوضوح أنه كان شيعيا معتدلا نشأ في بيئة شيعية فلم يكن غريبا عليه أن يتطبع بطبع أهله وان كان قد تأثر نتيجة لثقافته بما جعله يأخذ هذا الاتجاه السالم وان يخفي هواه فلا يصرح به كذلك محاورته لبعض المجتمعات السنية فحاز رضاء الجميع ورضوا أن يكون منهم وكفاه كما قال الخوانساري قبول العامة والخاصة .

---

١ -الذريعة/للراغب ص ٧٠

٢ -نفر المصدر ،ص ٨٧

الفصـــــل الخامـــس

أهم أعمالـــه وإغفال رجال الطبقات لـــه :

بينا في الفصل السابق أن الراغب الأصفهاني هو احدى الشخصيات التي فرضـــــت نفسها بأعمالها وليس بانتمائها الى احدى الفرق أو دخوله في خصومات ومعارك مع غيـــره من العلماء فالرجل لم يكن صاحب سلطان أو نديم خليفة حتى يحظى بالتأريخ له . وهـــن هذا يقول محمد كرد علي (لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء وليعلق أو تعلقهم بالسفارة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتآليفهم وكم من عظيم لم يتولى قضاء ولا عملا للدولة بقي على خموله لا يكـــاد يشعر به ولا يعرفه غير بعض ابناء حيه ورهطه على ما يظهر الراغب الأصفهاني)(١)

نوافق محمد كرد علي في هذا التخريج لاغفال رجال الطبقات للراغب فان هذا التخريـــج ليس بالسبب الكافي فكما بينا في الفصل السابق أن هناك من العلماء من فرض نفسه بعلمـــه وعمله وآرائه وغير حاجة الى صلة أو قضاء . فالمسألة في نظرنا ليست

بأرخوا له الا بعد فترة طويلـــــــة

اذا استثنينا ما كتبه ظهير الدين البيهقي عنه (٢) حيث قام بنقل بعض آرائه دون التعـــرض لشخصيته أو تفصيل حياته ثم اننا لا نجد بعد البيهقي ذكرا للراغب الا عند السيوطي وهـــو كما نعلم قد عاش في القرن التاسع الهجري ولكننا ندرك من نص السيوطي أن الراغب كـــان معروفا في الأوساط العلمية يدل على هذا تلك الفقرة في التعريف له (٣) وقد كان ظـــني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام ما نصه ذكر الامام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس فـــــي الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي)بل هناك أيضا ما يدل علـــى

---

١ - كنوز الأجداد / محمد كرد علي ص
٢ - تتمة صوان الحكمة/البيهقي ص ١٠٤
٣ - بغية الرعاة/السيوطي ص ٣١٦

قبول العلماء له وهو ما يحكى من أن الغزالى كان يستصحب كتاب الشريعة معه لنفاسته .

فى الواقع فان الذين أهملوه هم رجال طبقات أهل السنة على العكس من رجال الطبقات فى المذهب الشيعى الذين أرخوا له فى كتب كثيرة ذكرها فى الترجمة له عند الخوانسارى والعاملى فتراهم يذكرون كتاب " تاريخ أخبار البشر " وكتاب " ريان العلماء " وكتاب " أسرار الامامة " للشيخ حسن بن على الطبرسى ويبدو أن مؤلفى هذه الكتب قد عاشوا قبل القرن التاسع الذى ألف فيه الخوانسارى كتابه " روضات الجنات " حيث اعتمد على هذه الكتب . اذا فهناك مؤرخون قد تناولوا الراغب وهم مؤرخوا الشيعة وهذا ما يجعلنا ندرك السبب الأول فى اغفال رجال الطبقات له وهو أنهم قد عدوه من الشيعة فلم يتوسعوا فى الترجمة له بل اكتفوا بالاشارة اليه ومن هذا ندرك أن غموض مذهب الراغب هو السبب الأول فى هذا الاغفال وخاصة كما سبق أن بينا فى الفصل السابق من أن المجتمع الشيعى مجتمع مغلق فلم تصل أية بيانات تعرف الراغب سوى مؤلفاته . ولعل هذا أيضا راجع الى أن مغادرته لأصفهان كانت متأخرة أو أنه كان متجولا ونزل على بغداد فى آخر أيامه وفيه ألف كتابه " المفردات " حيث لم يقم باهدائه الى أى شخص كعادته فى بقية كتبه السابقة كما أن اتهامه بالاعتزال قد أثر تأثيرا كبيرا على التأريخ له ففى الوقت الذى عاش فيه الراغب كان المذهب الاعتزالى يحتضر ويجرى جاهدا محاولا الاندماج فى المذهب الشيعى .

ولكن رغما عن هذا الاغفال فان آراء الراغب ومؤلفاته قد وجدت قبولا وهوى لدى الناس بالرغم عن هذا الاغفال الكامل بمؤلفها بل نراه يأخذ كثيرا من استحسان المؤرخين جمعها العاملى فى كتابه " أعيان الشيعة " (فضله أشهر من أن يذكر وعلمه أعرف من أن يوصف ومؤلفاته سائرة كسير الشمس والقمر وفى رياض العلماء الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصفهانى العالم الفاضل الأديب المفسر اللغوى المتكلم الحكيم الصوفى المعروف بالراغب الأصفهانى كان من مشاهير حكماء الاسلام) . وهو فى

هذا لم يخالف الحقيقة فى هذه التعاريف التى قام بجمعها عنه .

فهو أديب لكتابه المحاضرات وحكيم صوفى لكتابه الشريعة ومتكلم لكتابه النشأتين ومفسر لغوى لكتابه المفردات ومقدمة التفسير . كما أننا نحب أن نشير مع هذا الى أن الراغب فى هذه الميادين المختلفة كان عمدة فيها وما دمنا بصدد الحديث عن مؤلفاته فانه يحق لنا أن نتساءل هل وصلت الينا مؤلفات الراغب كاملة لم يضع منها شئ ؟

ان البحث عن هذه المؤلفات يكشف لنا للوهلة الأولى أن ما وصل الينا لا يتعدى نصف ما ألفه الراغب والكتب المعروفة لنا والموجودة الآن بين أيدينا واتفق عليها جميع المؤرخين هى:

١ ـ كتاب المفردات فى غريب القرآن .

٢ ـ كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء .

٣ ـ كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين .

٤ ـ كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة .

٥ ـ مقدمة التفسير .

وهذه الكتب هى التى أوردها يوسف سركيس فى معجمه وهى مطبوعة طبعات قديمة تداولها ما عدا المفردات التى طبع بعد ذلك طبعات حديثة .

ولكن بجانب هذه الكتب فان هناك أيضا مجموعة أخرى يبدو أنها فقدت أو ما زالت مخطوطة فى المتاحف والمكتبات منها كتاب "أفانين البلاغة" الذى وقف عليه السيوطى كذلك ما ذكره الخوانسارى فى روضات الجنات عن صاحب معجم الأدباء (له كتاب "تفسير القرآن" قيل وهو كبير قلت ولما أظفر عليه ثم أن له من بعد ذلك من المصنف المشهور والمؤلف الذى هو بالخبر مذكور كتاب "المفردات فى تحقيق مواد لغات العرب المتعلقة بالقرآن فى مجلدتين تبلغان ثلاثين ألف بيت فى ظاهر ما يقدر وانما ألفه فى مقابلة كتاب "تفسيره

للمركبات " كما عرفت وله كتاب سماه "تحقيق البيان فى تأويل القرآن " .... وكتاب فـــى الايمان والكفر بديع الطرز)وعلى هذا فاننا نجد أنفسنا أمام ثلاثة كتب جديدة للراغـــب غير موجودة بين أيدينا الآن الا وهى :

١ ـ كتاب التفسير وهو ما يطلق عليه بعض المؤرخين جامع التفسير والذى يقال عنـــه أن البيضاوى قد استمد منه مادته فى تفسيره . (١)

٢ ـ كتاب تفسير المركبات ولا نعلم شيئا عن هذا الكتاب .

٣ ـ كتاب تحقيق البيان وقد ذكره الراغب فى مقدمة كتاب الذريعة .

وبجانب تلك المؤلفات التى أوردها الخوانسارى فاننا نجد لدى بعض المؤرخين مؤلفات أخرى للراغب فطاش كبر زاده (٢) يذكر له كتاب "أفانين البلاغة " والعاملى (٣) يذكر لـــه كتبا أخرى هى كتاب الايمان والكفر وعنه يقول الخوانسارى (ويظهر منه أنه كان أشعرى الأصول الأصول) ،وكتاب التأويل فى متشابه التنزيل وكتاب أخلاق الراغب وقد ذكره أيضا كثيـــرون غيره من المؤرخين كما أن اسماعيل باشا بغدادى يشير فى كتابه "هدية العارفين الى كتاب اسمه المعانى الأكبر وكتاب رسالة فى فوائد القرآن وهذه جاء ذكرها فى مقدمة الراغب فـــى المفردات . أما دائرة المعارف فتذكر له كتابين أخريين هما كتاب حل متشابهات القـــرآن وأدب الشطرنج .

وعلى هذا فاننا يمكننا أن نقسم مؤلفات الراغب الى قسمين قسم مفقود أشار اليه المؤرخون ويشمل الكتب الآتيـــة :

١ ـ كتاب التفسير أو جامع التفاسير .

٢ ـ كتاب حل متشابهات القرآن .

٣ ـ كتاب الرسالة المنبهة على فوائد القرآن .

---

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية (مادة راغب)
٢ ـ مفتاح السعادة/طاش كبر زاده ص ٢٢٦
٣ ـ أعيان الشيعة/العاملى ص ٢٢٠

٤ ـ كتاب درة التأويل فى متشابهالتنزيل .

٥ ـ كتاب تحقيق البيان فى تأويل القرآن .

٦ ـ كتاب أفانين البلاغة .

٧ ـ كتاب المعانى الأكبر .

٨ ـ كتاب أخلاق الراغب .

٩ ـ كتاب أدب الشطرنج .

١٠ ـ كتاب حل متشابهات القرآن .

١١ ـ كتاب الايمان والكفر .

١٢ ـ كتاب الدرة(١) .

١٣ ـ أما القسم الآخر ويشمل الكتب الموجودة بين أيدينا الآن وهى :

١ ـ كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين .

٢ ـ كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة .

٣ ـ مقدمة التفسير .

٤ ـ كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء .

٥ ـ كتاب المفردات فى غريب القرآن .

---

١ ـ جاء ذكر هذا الكتاب فى الكتالوج الخاص بمكتبة ماكر ماير هوف

الباب الثانى
كتاب المفردات

المدخل

الفصل الاول النسخ الخطية والمطبوعة

الفصل الثانى دوافع الراغب وراء تاليفه المفردات

الفصل الثالث منهج الراغب فى كتابه المفردات

الفصل الرابع موقف الراغب من المشكلات اللغوية والدينية ومنهجه فيهما

الفصل الخامس الراغب والفقه والتشريع

البـــاب الثانـــى

كتـــاب المفـــردات

المدخـــــل :

بالرغم من شهرة كتاب المفردات الذى أصبح الآن لا غنى للباحثين فى مجال الدراسات اللغوية والإسلامية عنه فانى هذا الكتاب لم يحظ بعد بمن يقوم بدراسته وبيان منهجه وربمـا كان مرجع ذلك كما سبق أن أشرنا من قبل الى غموض شخصية مؤلفه ولكنا نرى برغم هـــذا أن الكتاب فى متناول الجميع يأخذون منه ولست أشك فى أن السبب فى عدم دراسة هذا الكتاب راجع الى ضعف فى المادة أو قصور فى المنهج فلم يدر هذا بخلد أحد من تعرضـــوا للدراسات الاسلامية واللغوية فإســـهـــم الكتاب ورد فى معظم المصادر التاريخية الـــتى أرخت للعلماء كما سبق أن بينا فى الفصول السابقة ضمن تراث الاسلام العظيم فعنه يقـــول محمد كرد على (وقد امتاز بأن العقل يتجلى فى سطوره فهو من أعظم العلماء الذيـــــن يحسنون استخراج الآى من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلا على ما يريدون الافاضـــة فيه ومن أعظم من طبقوا الحكمة أى العقل على الشرع كما امتاز فى تنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها واقتصاره فى تقريره على ما يجب أن يبقى فى الذهن ولا تعافه النفـــس لطوله ولغه ودورانه) .

فهو اذا من العلماء الذين امتازوا بالتخطيط لكتبهم حاملا أمانة العلـــم لم يؤلف ليواجـــه جماعة أو يرد على شيعة انما كتب عن هوى فى نفسه ولهذا اعتبره الكثيرون من الصوفية لأنـــه سار فى حياته على منهج واحد كبير ضمن مناهج صغيرة مرتبطة بعضها ببعض فمجال دراسته هو الانسان فى دنياه وآخرته وكيف يعبر تلك الحياة ليصل الى النشأة الثانية الباقيـــــة الخالدة وعليه فى تلك الرحلة عبر دنيا هى فى نظر الراغب دار ممر وليست دار مقر باتبـــاع مكارم شريعة الله التى أنزلها على عباده مفصلة ومجملة ليهدى به الى الطريق السوى لهـــذا

فان علمه أولا وأخيرا فهم ودراسة القرآن بعيدا عن أهل الأهواء والبدع ملتزما بما أنزلـــه الله تعالى محافظا عليه مستمسكا بالمكارم القويمة .

هذا هو منهج الراغب الذى سار عليه فى جميع مؤلفاته فى تفصيل النشأتين والذريعـــة والمفـــردات .

واذا كان مجال دراستنا هنا هو كتاب المفردات فانه لاغنى لنا عن كتبه السابقـــة الممهدة لكتاب المفردات . والواقع فان كتاب المفردات هو تصوير حى للغة فى القرن الخامس حيث مالت الى التعقيد الى أن جاء الراغب فوضع كتابه هذا خدمة فى المادة ببساطة ويسر فى المنهج ولهذا أشار الدكتور حسين نصار فى كلامه عن ترتيب المعاجم حيث يقول :

(أما الترتيب الألفبائى فابتدأ معقدا عند الخليل فى القرن الرابع من جهة وبسيطا من جهة أخرى معقدا من حيث فصله بين المفتوح والمضموم والمكسور وبسيطا من حيث ادخاله الحروف الأصلية والمزيد فى اعتباره وكان من آثار هذا التعقيد أن لم يتبعه أحد من المؤلفين المؤلفين غير صاحبه وأن الذين اعتمدوا على كتابه غيروا هذا الترتيب الى الترتيب بحســـب السور مثل الماردينى وابن الهائم ولكن هذا الترتيب ارتقى سريعا وتخلص من كل تعقيداته وقيوده وخـــب الى قمة الانتظام فى القرن الخامس على يد الراغب الأصفهانى) . ويقول فـــى فقرة أخرى (ولم يعرف من جاء بعد الراغب عن الحياة معه بين القمم فعدل الرازى فى القـــرن السابع عن ترتيبه) .

اذا فالكتاب قمة من قمم الدراسات اللغوية والقرآنية لا يدانيه أحد ويكون العجيب حقـــا أن لا يلتفت أحد الى هذا الكتاب ليحققه ويقوم بدراسته كما حظى ما هو دونه من الكتـــب بدراسات لا تستحقها .

وعلى هذا فان دراستنا فى هذا الباب تنصب على الكتاب ذاته ومنهج الراغب فيـــه مبتدئين بوصف عام للكتاب ومخطوطاته ثم التعرض للأسباب التى دعته الى تأليف هذا الكتاب

ثم منهجه فيه وموقفه مع مشكلات الترادف والاشتقاق والتفسير والتأويل .

وقد كان لزاما علينا ونحن في هذا الباب أن نتعرض للغريب وكتبه ولكنا أرجأناهـــــا الى الباب القادم الذى خصصناه للكلام عن الغريب وكتبه .

الفصـــــل الأول

النســـخ الخطيـــة والمطبوعـــة :

يعتبر كتاب المفردات فى غريب القرآن من أشهر كتب الراغب الأصفهانى حتى أصبـــح علما عليه فأطلق عليه اسما مختصرا هو الشائع بيننا الآن وهو " مفردات الراغب " وبالرغم مما حازت به كتبه الأخرى من اعجاب مثل كتاب " الذريعة الى مكارم الشريعة " والذى قيـــل أن الغزالى كان يستصحبه معه فى أسفاره الا أن شهرة كتاب المفردات قد طغت على كـــل مؤلفاته ويبدو أن سبب هذا هو كثرة استعمال هذا الكتاب لصغر حجمه وسهولة عباراتـــه وتنسيق أبوابه فالراغب لم يجار عصره فى عمل الموسوعات وكتابة المجلدات بل جاءت كل كتبـه صغيرة الحجم قليلة المادة بالنسبة لعصره ما عدا كتاب المحاضرات وهو كتاب فى الأدب ضمنه الحكايات والنوادر والأحاديث، ولكن برغم صغر حجم كتبه وقلة مادته فان هذه القلة كافيـــة لأن يغرف منها الباحثون وهذا راجع بلاشك الى دسامة مادته وليس الى غزارتها أى أن مادة الراغب تعطى المقصود منها مباشرة بغير عوج ولا التواء وهو السبب فى التهافت على استعمال كتاب المفردات والذى يدلنا على كثرة تداوله هو المخطوطات الكثيرة والمطبوعـات العديدة الموجودة له فاذا ما حاولنا استقصاء مخطوطات هذا الكتاب لوجدنا أن هنـــاك كثير منها فى دار الكتب المصرية والأجنبية أوردها بروكلمان فى Gesch der Ar. Lit (ص ٢٨٩) (١) علاوة على مخطوطات أخرى كثيرة فى استانبول (٢) وفى بنكيبور بالاضافة الى مخطوط آخر بمكتبة برلين .

ويبدو أنه ليس هناك شك فى نسبة الكتاب للراغب فلم تطالعنا المصادر وكتب السيرة عن أى اختلاف أو شك أو تحريف فيه ولهذا أقصينا التحقيق عن نسبة الكتاب اليه جانبا مكتفين

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية

٢ -

٣ - دائرة المعارف الاسلامية ؛ ، ص ١٨٠ ص ١٤٨٤

لا يوجد اختلاف عليه . وعلاوة على هذه المخطوطات فيوجد بدار الكتب المصرية الآن ثلاثة مخطوطات لهذا الكتاب الأولى وتقع تحت رقم ٢١٤ لغة وهى مجلدة تجليدا فاخرا وتقع فى ٣٥٥ صفحة ومتوسط الصفحة ٢٥ سطرا مكتوبة بخط دقيق جميل ويبلغ طول الصفحة ٣٠ سم وعرضها ١٨ سم . وتقع الكتابة داخل برواز مذهب طوله ٢٠ سم وعرضه ٩ سم ،ومما يميز هذه النسخة وجود بعض الكلام خارج البرواز ليحدد موضع الكلمة الجديدة باللون الأحمر هذا علاوة على وجود أسماء السور فوق الاستشهاد بالآيات وكذلك بيان الآيات المنسوخة ويبدو أن هذه النسخة قد صححت بعد كتابتها حيث يلاحظ فى جوانب البرواز وجود تصويبات كما فى مادة (برك)حيث جاء فيها (ما يفيض علينا من نعمة بواسطة (فقد كتب على الهامش بواسطة)كما يوجد أسفل كل برواز الكلمة التى ستبدأ بها الصفحة التالية .

ويبدو أن هذا المخطوط قد كتب فى وقت متأخر لنظافته ودقة خطه وهو من كتبخانة مطبوعة بولاق أضيفت اليها فى ٦ يناير سنة ١٨٩٥ م الا أن هذا المخطوط لم يوضح به أسماء ناسخيه ومتى ابتدأ فى نسخه ومتى تم الانتهاء منه . وهذه النسخة مطابقة للطبعات الحديثة للكتاب وليس بها أى اختلاف . والنسخة الثانية والثالثة تقع تحت رقمى ١١٩ ، ١٢٠ وهما نسختان متشابهتان لا فرق بينهما وتقع كل نسخة منها فى ٣٠٠ ورقة وتتكون الورقة من ٢٣ سطرا ومتوسط السطر كلمات الا أن هاتين النسختين تمتازان عن النسخة السابقة بأنه يوجد على الحلادة تعريف بالراغب فقد كتب عليها نقلا عن تعريف حاجى خليفة فى كشف الظنون" (هذا كتاب مفردات ألفاظ القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنة نيف وخمسمائة رحمه الله) .

وسماه السيوطى فى طبقات النحاة الفضل بن محمد قال : كان أوائل المائة الخامسة ونقل عن خط الزركشى ما نصه (ذكر الامام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن الراغب من أئمة أهل السنة وقرنه بحجة الاسلام الغزالى رحمهما الله تعالى آمين) .

كذا فى كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون للمولى كاتب جلبى رحمه الله) .

وتمتاز هاتان النسختان أيضا بوجود اسم الآية فوق الاستشهاد كما أنه عند ابتداء كل مادة توجد فى الهامش كلمة (مطلب) .

وخلافا للمخطوط السابق فقد كتب فى هاتين النسختين تاريخ نسخهما واسم الناسخ (تم بعون الملك الوهاب على يد أبوالعباد سليمان بسين شهر الله الحمرى وذلك نهار الثلاثاء يوم ١٧ خلت من ذى الحجة سنة ١٠٩١ وصلى على سيدنا محمد)ويبدو أن هاتين النسختين أحدث من النسخة السابقة لوجود تعريف حاجى خليفة وكذلك لوجود تاريخ الانتهاء من النسخ . أما عن نسخ الكتاب المطبوعة فهى عديدة أهمها :

١ - طبعة المطبعة الميمنية ١٣٢٤ هـ وهذه الطبعة رغم حداثتها الا أنها غير منظمة ولم تخرج بالمظهر اللائق لمعجم قرآنى فليس هناك فواصل بين المواد وبعضها بل يبدو أن ناشر هذه الطبعة لم يبذل أى جهد فى اخراجها مما يسبب اجهادا للباحثين فى البحث عن المواد .

٢ - طبع على هامش كتاب النهاية فى غريب الحديث سنة ١٣٤٠ هـ .

٣ - طبعة المصطفوى بطهران وتوجد هذه الطبعة بدار الكتب تحت رقمى ٢٦٩٧٨ ، ٢٦٩٧٩ .

٤ - طبعة الحلبى سنة ١٩٦١ بتحقيق محمد سيد كيلانى وهى أحسن الطبعات الموجودة الآن بين أيدينا فهى منظمة ومبوبة وقد اعتمد سيد الكيلانى بتحقيق الكتاب على خمس نسخ هم : نسخة المطبعة الميمنية والتى بهامش كتاب النهاية فى غريب الحديث وعلى المخطوطتى رقمى ١١٩ و ١٢٠ م وذكر مخطوطة أخرى برقم ١٠١٩ هـ وقد قمنا بالبحث عنها بدار الكتب وفى سجلات المخطوطات بمكاتب العربية فلم نعثر لها على أثر وعلى هذا يكون سيد الكيلانى لم يرجع الى المخطوط رقم ١٦١٤ لغة أو الى طبعة طهران على أن المآخذ التى تؤخذ على هذه الطبعة أنها لم تول العناية الكافية من المحقق فقد كان الأولى به

أن ينبهنا الى الفرق بين النسخ بعضها وبعض وان كان هذا الاختلاف بسيطا وهو بعدم التصحيفات الا ان الامامة كانت تفرض عليه أن يقوم بها . كذلك تعتبر هذه الطبعة ناقصة من ناحية التبويب والفهرسة والمراجع فلم يبين بها أسماء الصور المستشهد بها رغم وضوحها في كل المخطوطات كذلك فهرست الأعلام التي جاء ذكرها في الكتاب بدلا من التحقيق البسيط الذى جاء به في آخر الكتاب تحت عنوان "وفيما يلى بعض التحقيقات والتعليقات" وهى تحقيقات وتعليقات بسيطة

الفصـــــل الثانـــــى

الراغب وراء تأليفه المفـــردات :

بدأت حياة المجتمع العربى فى صورة منظمة عندما ظهر الاسلام يحمل معه أصـــــول الاعتقاد المحررة من الشوائب التى خالطتها على مدى العصور السابقة ـ كذلك جـــــاء الاسلام بأصول التشريع العملى المنظم لسير الحياة العملية على الأرض ومن هنا كان النـــص القرآنى كاملا كلا الأمرين ومن هنا أيضا تصدى العلماء لدراسة النص باذلين جهدهم فـــى استنباط أصول العقيدة منه رغم أن كثيرا من الآيات التى عرضت لهذه العقيدة جاءت مجملة . وقد أدى هذا الاجمال الى اختلاف الآراء فى تفسيرها وتأويلها وقد تحرج المسلمون أول الأمر من التصدى لهذه الآيات الا ما وردت به السنة المحددة معانيها أو مفصلة مجملـــة أو مبينة مبهمة .

ويبدو أن الذى شغل المجتمع الاسلامى أول الأمر عن تفصيل القول فى الاعتقاد عـــدة أمور أهمها أن العقيدة الاسلامية والتى جاء بها القرآن لم تكن تختلف فى جملتها وتفصيلها عن دعوة الكتب الدينية السابقة والتى لم يصبها تحريف أو تغيير وهى تتلخص فى أن هنـــاك اله واحد لا شريك له كما عبر عن ذلك القرآن الكريم فى سورة (قل هو الله أحد) ومنها أيضا أن القوم كانوا مشغولين فى تفصيل القول فى الحلال والحرام الذين هما أساس التشريـــع الاسلامى والذين عبر عنهما الأصوليون (افعل ولا تفعل) .

وقد أدى ذلك الى اتساع القول فى الفقه الاسلامى أو فى التشريع الاسلامى والـــى أن ظاهرة التأويل التى كانت معمولا بها منذ عصر الصحابة كما أشار الى ذلك الآمدى فـــى أصول الأحكام حقا أن المسلمين كانوا لا يشرعون الا لما يصادفهم من الأحداث والوقائع فلما تطورت حياة المجتمع الاسلامى نتيجة اتصاله بثقافات وحضارات جديدة أهمها الحضـــارة

اليونانية بما ترجم من آثارها الى العربية وما شاعت دراسته في المدارس المنتشرة بنـــواح متعددة بالعالم الاسلامي كمدرسة جنديسابور وحران ثم ما كان من آثار هذه الحضارن بين الأمم التي فتحها المسلمون والتي كان قد فتحها اليونان أيام الاسكندر فشاعت فيها دراسة الفكر اليوناني كبلاد فارس ثم بلاد الشام فلما تطورت حياة هذا المجتمع بدأ المسلمـــون يفصلون القول في الاعتقاد على هدى من وجوده في الفكر اليوناني المترجم والذي تعصبت له بيئات اسلامية أهمها البصرة وكان يمثل هذا الفكر فيها المعتزلة والشيعة وان كانـــت متأخرة الا أن لها دلالتها على هذا الاتجاه نحو الفكر اليوناني منذ أن ترجم للعربيـــة ولا نزاع في أن هذه العقيدة قد عبر عنها بلغـــة وأن هذه اللغة محتملة لجملة معانـــي يعمل في تحديدها ما يصيبه المتصدي لها من ثقافة وفكر - فاذا انضم على هـــذا أن المسلمين اختلفوا على أنفسهم في أمر الخلافة وأن هذا الاختلاف اعتمد أيضا على نصوص صدرت عن الرسول أو عن عمل صدر منه بأن قدم بعض الصحابة في الصلاة أو استخلفه في أمر من أمور الدين أو الدنيا حين اشتد به المرض عليه الصلاة والسلام أو عندما كان على سفـــر وقد صحبه الامام علي رضي الله عنه في حادثة غدير خم .

هؤلاء الذين انقسموا على الخلافة لم يكن انقسامهم عليها مرجعه الى عصبية أو تشـــدد لا يعتمد على نص أو فعل ولكنهم كانوا يذهبون في تأويل هذه الأقوال أو الأفعال مذاهـــب شتى فلما استقر الأمر لأبي بكر ثم من بعده لعمر ثم آل الى عثمان كان ذلك مقدمة لما يسميه المؤرخون بالفتنة الكبرى وهي التي اشترك فيها علي رضي الله عنه وهو ممثل لأهل العـــراق ثم معاوية وهو ممثل لأهل الشام وانتهى الأمر بالتحكيم الذي وافق عليه علي رضي الله عنـــه وكان ذلك بداية ظهور فرقة الخوارج ثم ظهور الشيعة والفرق بينهما أن الخوارج خرجـــوا على علي رضي الله عنه حين قبل التحكيم وأن الشيعة ظلوا موالين له وينسب الى علي قولتـــه الشهورة حين قال الخوارج " لا حكم الا لله " هذه الكلمة " قولة حق أريد بها باطـــل "

وكان ذلك من على كرم الله وجهه ايذانا بأن الكلام سواء أكان قرآنا أم سنة يمكن أن يفسر أو تؤول باحتمالات متعددة ومقاصد مختلفة وأنه لا سبيل لترجيح مقصد على آخر أو معنى على سواه الا بأشياء أهمها : تحقيق معانى الألفاظ ثم تحديد الظروف والملابسات التى صاحبت النص أو الفعل ومن هنا أيضا عنى المسلمون بتفسيرهم للنص القرآنى لأسباب النزول وان كان الأصوليون آخر الأمر قد قرروا قاعدة مؤداها أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والقصد من ذلك أن يخلقوا آيات الأحكام من ربطها بأسبابها حتى تكون عامة لكل حادثة يمكن تطبيقها عليه .

وانقسم المسلمون الى شيعة وخوارج وأطلق على بقية المسلمين أهل السنة والجماعة ويبدو أن فكرة أهل السنة لم تطلق الا فى العصور المتأخرة وانما كان يطلق عليهم اسم العامة ذلك أن المسلمين جميعا على اختلاف فرقهم يعتمدون على السنة ويمكنون لها فى الاعتقاد والعمل التشريعى لها .

وكان الفرق بين الفرق أن الشيعة لا يروون الا عن أئمتهم وأن الخوارج لا يروون الا عن الصحابة قبل الفتنة أما بعدها وهم ليسوا أهلا للرواية أما الجماعة أو أهل السنة كما أطلق عليهم فانهم كانوا يروون عن عامة الصحابة لا فرق عندهم بين صحابى وآخر ومن ضمنهم من تشيع لعلى من غير أن يجرحوه وانما كانوا يكتفون بالاشارة الى تشيعه والدليل على هذا أن ابا حنيفة قد أخذ عن جعفر الصادق وأن الشافعى روى عن كثير من الشيعة وقد استوطن الشيعة بلاد فارس والعراق واستقر بها الأئمة منهم وخاصة فى النجف وكربلاء وشاع التشيع فيهم وبالرغم من أن التشيع نشأ فى هذه الأقطار فانها هى التى حملت لواء العلم الاسلامى ومكنت له - فجلة المحدثين من أصحاب المسانيد والصحاح كانوا فرسا وان لم يتشيعوا فمنهم البخارى والترمذى والنسائى .

ومعنى هذا أن هذه البيئة قد شهدت صراعا قويا بين الشيعة المتعصبين وبين العامة

المسلمين الذين كانوا يقتلون هذه البيئة وكان عجيبا أن تكون هناك بلد يغلب عليهـــا التشيع وأخرى يغلب عليها التسنن (١) بل أن هذه البيئات شهدت صراعا قويا بيـــن المذاهب الفقهية نفسها ويحدثنا المؤرخون أن بلاد الري كانت الخصومة بين أهلها قويـــة على مذاهب أهل الرأى وأهل السنة وقد أشار الى ذلك ياقوت في معجم البلدان عنـــد كلامه عن بلاد الري كما أن المناظرات التي دارت بين الفخر الرازى وبين من لقيهم مـــن أهل هذه البلاد تشهد بهذا الصراع وتؤكده .

ويضيف الشيخ [illegible] فكرة الإمامة عندهم فقد رتبوا أئمتهم كل فرقـــة وفقا لعقيدتها ،ولكل امام زمانه ومكانه وعلمه ورأيه وقد أشار الى ذلك بتفصيل كبير النوبختي في فرق الشيعة وهو شاهد من أهلهم كما فصل القول فيهم أيضا الشهرستاني في الملـــل والنحل كما أشار البغدادى في الفرق بين الفرق الى الفروق الدقيقة بينهم وكذلك باقـــى الفرق الأخرى ونحن هنا لم نفصل القول في هذه الفرو ونشأتها وظروفها وانما الذى يعنينا هنا أن نشير الى عللها في تكوين العقلية التي لقي بها أصحابها النصوص الدينيـــة ففسروها وأولوها .

استقرت المذاهب الفقهية وكان للشيعة مذاهبهم المتعددة منها ما هو قريب من أهـل السنة كالمذهب الزيدى ومنها ما يبعد . كذلك اختلف أهل السنة فالأشعرية غير الماتريدية وكلاهما غير المعتزلة - وقد عم المذهب الأشعرى معظم أنحاء العالم الاسلامى وشاعـــت الماتريدية في بعض بلاد ما وراء النهر وتركيا والذى مكن للمذهب الأشعرى أنه هاجـــم الاعتزال فوقف منه موقفا متشددا أو بعبارة أدق وقف من هذه المذاهب كلها موقفا وسطـــا وقد أشار الى هذا أستاذنا المرحوم أمين الخولى في كتابه "المجددون في الاسلام" .

---

١ - معجم البلدان/ياقـــوت .

ثم تلا عصر الذى شعرى (القرن الخامس الهجرى) وهو قرن يتميز بخصائص أهمها ظهور نظرية النظم التى اعتمد عليها المتناولون للنصوص والتى لخصها وفصلها عبد القاهر الجرجانى كما ظهر فى هذا العصر أيضا الدعوة الى استحياء التراث القديم بمن القراءات الشاذة للاعتماد عليها فى توسيع آفاق التصور الدينية حتى تشمل ما يجد فى الحياة من أحداث وخصوصا فى الفقه الاسلامى بالاضافة الى ظهور كتب الاعجاز القرآنى وأهمها كتاب الباقلانى الذى ناضل وسفه آراء المعطلين لبعثة الرسل .

وفى هذا المعترك من النزاع بين هذه الفرق ظهر الراغب الأصبهانى الذى أدرك بوعى عميق أن الدوافع وراء وضع الكتب كانت وما زالت مرتبطة أشد الارتباط بناحيتين :

١ - الناحية العقائدية .

٢ - الناحية السياسية .

رأى الراغب هذا واضحا فى التاريخ الاسلامى فالناحية العقائدية توضحها الفرق الاسلامية من سنة ومعتزلة وشيعة وجبرية وقدرية بما فيها من تأثيرات مسيحية ومجوسية ويهودية وهندية والسياسية ويمثلها الواقع السياسى مثل الدولة العربية فى احتضانها تلك الفرق العقائدية كاحتضان الدولة الأموية لمذاهب الجبرية والقدرية والمرجئية واستيلاء الشيعة الفاطمية على المغرب العربى ثم مصر .

كذلك لاحظ الراغب أن هناك مرحلتان انتهت احداهما بينما بدأت الأخرى بالنسبة للدراسات القرآنية ورأى أيضا أن الدراسات القرآنية الأولى التى بدأت مع الكتاب قد وصلت الى نهايتها فى ذلك الوقت وهى كتب التفاسير والنحو التى وضعت فى خدمة الكتاب الكريم فهذه الدراسات ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنص ولم تحد عنه سواء أكان باللفظ أو المعنى .

أما المرحلة التى بدأت فهى مرحلة جديدة فى الدراسات القرآنية تعتمد اعتمادا كبيرا على النظرة الجمالية للقرآن تبحث فيه بجانب كونه كتاب دين على أنه كتاب أدب وبلاغة .

وكانت هذه الدراسة الجديدة محل نظر لدى الراغب فالكتاب الكريم عنده كتاب تكليف وعمل وأى تخريج فيه يجب الإلتزام به وعلى هذا فلم يشايع هذا الاتجاه فقد كانت نظرته للكتاب نظرة دينية صرفة لا يحتمل أى تخريج لم يأت به أو ينص عليه ويقرر هذا فى مقدمة كتابه المفردات (جعل كتابه المنزل عليه متضمنا غرة كتبه التى أولاها أوائل الأمم كما نبه عليه بقوله تعالى "يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة" وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحكم متضمنا للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب عن احصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه) . هذه الحقيقة التى آمن بها الراغب هى التى جعلته يقف هذا الموقف - موقف الملتزم بما جاء فى الكتاب لفظا ومعنى فالتفسيرات الجديدة التى يراها للقرآن الكريم وضعت بلغة جديدة على المجتمع الاسلامى - لغة عاصرت حضارات ومجتمعات أصابت دلالتها وأضافت اليها ما لم يكن بها فكان اضطرابا شديدا - وهذا التطور الدلالى الكبير فى حياة اللغة أدى الى تطور واضح فى مجرى حياة التشريع الاسلامى كما أدى أيضا الى تطور ولضح فى نوع آخر فى تحديد الأصول العقيدة الاسلامية وبخاصة فيما يتصل منها بالذات الالهية وأصبحت التفسيرات غير واضحة المعانى وأصبح يتجاذب أطراف الكتاب علوم وفرق شتى كل تحمل النص بما ليس فيه . فقد أصبح ينظر الى الكتاب على أنه صدر من مصادر الفلسفة وعلة موصلة الى وحدة الوجود الالهى كذلك نظر الصوفية الى الكتاب على أنه اشارات ورموز لخاصة من الخلق والمعتزلة تقف وتنادى برفض كل ما لا يقبله العقل .

وأمام هذا التخبط والنزاع لم يكن أمام الراغب الا أن يظهر موقفه من الكتاب الكريم فكان عليه أن يرفض اخضاع كتاب للعقل البشرى بل يجب اخضاع العقل له - كذلك رفض أن يكون الكتاب صدرا من مصادر الفلسفة أو كتاب رموز واشارات وعلى هذا فقد قام بوضع كتابه المفردات معتمدا أولا وأخيرا على القرآن وحده، كما أن لغة القرآن الكريم ـــــ لغة نص كأداة تعبير عن الفكر العربى الذى عاش فى الصحراء لم تؤثر فيه

حضارات غير حضارته ومن هنا فقد حدد الراغب نفسه ولم يخرج عن واقع الكتاب وغاية ولغة كذلك المجتمع الذى نزل عليه الكتاب ـ شارحا الكتاب للكتاب آخذا منه مفسرا له فنراه يذهب فى تحديد أنواع المعلومات بأنها ثلاثة أنواع(١) (نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ ،أما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعانى وذلك ضربان أحدهما حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة والثانى حكم لواحق الألفاظ وذلك شيئان شئ يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشئ يختص به النصب وهو علم العروض وعلم القوافى . وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة وعلم البلاغة وعلم الشعر . وأما المتعلق بالمعنى فضربان علمى وعملى ...)ثم يسترسل بعد ذلك فى بيان ما هو العلمى والعملى فيرى أن العلمى هو ما قصد به العلم فقط كمعرفة البارى والنبوة أما العملى لديه فهو ما يجب أن يعلم ثم يعمل به فيسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة وتارة أحكام الشرع . (٢)

اذا فالمعلومة التى تتعلق بالمعنى لديه بقسميها تستوجب العلم أولا ثم العمل ثانيا وهذه المعلومة لايصل اليها الفرد الا بعد دراسة المعلومة المتعلقة باللفظ وهى لديه تحصيل الألفاظ بوسائط المعانى اما بحكم ذاتها واما بحكم لواحقها وهى بهذا بحث على دراسة علم تحقيق الألفاظ المفردة حيث أنها أحد الأسباب الأساسية الموقعة بالشبهة (٣) وهو فى هذا لايبعد الانسان عن هذه العملية حيث هو الأساس الأول (السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان : المعنى واللفظ أما ما كان من جهة المعنى فاما ان يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الجنة أو من جهة الالة

---

١ ـ الذريعة/الراغب ص ٧٨
٢ ـ نفس المصدر ص ٧٩
٣ ـ نفس المصدر ص ٩٤

الـــــتى تستعـــــل للتى للنظـــل فى للنظر فان الناظر فى الشئ المعتبر فيه جـــــار مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير تام العقل كـــــان أعمى البصيرة فيجرى مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن) .

وعلى هذا فهو يعزى التخبط والخلاف الى سوء استخدام الموازين وهو يعنى بهـــــا هنا معايير العلوم .

الفصـــــل الثالـــــث

منهـــج الراغب في كتابـــة المفـــردات :

منذ أن قام الخليل بن أحمد بوضع كتابه العين وحتى الآن لم تخرج المناهج المعجمية عن ثلاث نظم هي :

١ ـ نظام العيـــــن .

٢ ـ نظام القافيـــــة (الروى)

٣ ـ نظام الترتيب العادى .

فالأول وهو نظام العين والذى انفرد الخليل بن أحمد بوضعه يتلخص في أربعة نقاط :

أ ـ ترتيب الكلمات أبجديا حسب حروفها وفقا لمخارجها الى مجموعات تبدأ بالمجموعـــــة الحلقية وتنتهى بالمجموعة الشفوية وهذه الأبجدية هى :

ع ح ه خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط د ت ـ ظ ذ ث ـ ل ن ـ ف ب م ـ و ا ى .

ب ـ ترتيب الكلمات تبعا لحروفها الأصلية فقط .

جـ ـ تبويب الكلمات وخضوعه لنظام الكمية كالآتى : الثنائى ـ الثلاثى الصحيح ـ الثلاثى المعتل اللفيف ـ الرباعى ـ الخماسى ـ المعتل .

د ـ عولجت الكلمة ومقلوباتها فى موضع واحد بطريق التقليبات .

وقد سار على نهج الخليل هذا مجموعة كبيرة من علماء المعاجم أهمهم ابن دريد فـــى الجمهرة والأزهرى فى تهذيب اللغة ـ وأبى على القالى (١) فى البارع والزبيدى فـــــى المختصر وابن سيدة فى المحكم .

والثانى نظام القافية (الروى) وهذا الترتيب مغاير تماما لترتيب الخليل فى العين فلـــم يسر على نظام التقليبات أو النظام الصوتى بل كان يتخذ الترتيب الأبجدى العادى أساســا ولكن على الحرف الأخير من الكلمة وعمدة هذا النظام الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ومـــن

---

١ ـ كان للقالى أبجدية صوتية لا تتفق مع أبجدية الخليل وتختلف عنها قليلا .

اتبعوا فى هذا ابن منظور فى لسان العرب والفيروز ابادى فى القاموس والزبيدى فـــــى تاج العروس .

والثالث نظام الترتيب العادى وهو أن ترتب الكلمات وفقا للأبجدية المعروفة مع مراعـــاة أصول الكلمة ،ومن سار على هذا النظام ابن فارس فى المجمل والمقاييس والزمخشرى فـــى أساس البلاغة وقد اتبع الراغب الأصفهانى هذا النظام فى مفرداته كما صرح فى المقدمة :

(وقد استخرت الله تعالى فى املاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حـــــروف التهجى فنقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم معتبرا فيه أوائل حروفـــــه الأصلية دون الزوائد) . فنراه يقسم كتابه الى ثمانية وعشرين جزءا بحسب الحروف الأبجدية وسمى كل جزء من هذه الأجزاء كتابا مثل كتاب الألف كتاب الباء - . . . الخ . كذلك كـان يفعل نفس الشئ بالنسبة للمادة فكان يرتبها وفقا لتتابع الأبجدية فاذا أخذنا مثلا بـــاب النون نراه يرتب المادة وفقا للآتـــى :

نبت - نبذ - نبط - نبع - نبأ - نمى - الا أنه رغم هذا الترتيب الأبجدى نـــــراه فى بعض المواضع يخالف هذا الترتيب كما حدث فى كتاب الألف فنراه يقدم مادة أسف علـــى أثر وكذلك فى كتاب الهاء يقدم مادة هرع على مادة هرت - وأيضا فى مادة هلل يقدمها على مادة هل وفى كتاب النون يقدم مادة نفر على مادة نفث وفى باء الحاء جاء بمادة حبـــــر قبل حبـــط .

كذلك اختلت عنده بعض الأبنية مثل الثنائى المقصور (أ ب)والمضاعف الثنائـــى مثال قرأ والمهموز والمعتل فنراه يقدم الثنائى المقصور فى أول فصوله أيا كان الأصـــــــل الثالث كذلك قدم المضاعف الثنائى أو الثلاثى فيضمه مع المعتل دون تفرقة بين الواو والباء .

كذلك كان الراغب لا ينظر الى الزوائد فى الكلمة بل كان يرجع الى مصدرها برغم أنـــه يضع الكلمة أولا فى زوائدها مثل مادة بتك فى كتاب الباء فهو يضعها قبل مادة بتر وذلـــك

على أن أصلها هوبت . وكذلك جاء بكلمة ستكأفي باب التاء بعد مادة تقوى على أنها من تون . وأيضا مادة ثبات التي جاء بها بعد مادة ثبط ليس على أنها من ثبه .

وبخلاف هذا الاضطراب داخل باب المادة اللغوية عند الراغب وهو اضطراب لا يصيب منهجه البسيط الوافي شيئا فان منهجه يعتبر من أكمل المناهج التي وردت في معاجم الغريب . (١)

أما عن الصيغ التي استعملها فاننا نلاحظ أنه استخدم جميع الصيغ فنرى أنه استخدم الفعل الماضي ثم المضارع ثم الأمر ثم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ثم المصدر ومنه يأخذ اسم الزمان والمكان والآلة والمصدر الميمي واسم المرة واسم الهيئة . واذا كانت هذه الصيغ غير مرتبة في مواده فان مرجع هذا هو تتبعه الكلمة واستعمالاتها في القرآن كذلك كان لا يستخدم هذه الصيغ أو بعضها الا في المواد التي تحتاج الى اباتة كالصلاة والزكاة .

واذا كان المعجميون قد عنوا بالمادة اللغوية وحدها وهي اللفظة فان الراغب يرى أن الذي يحدد دلالتها ويكشف عن أبعادها المختلفة انما هو الاستعمال وهذا الاستعمال يقتضي أن يكون المتصدي لها بكثير من دروب العلوم المختلفة كالنحو والاشتقاق وغيرهما ولهذا نراه يربط النحو باللفظة واستعمالها وبخاصة بين الألفاظ التي يختلف مدلولها باختلاف عللها النحوية كما في مادة جعل (جعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل يصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه الأول : يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا ،قال الشاعر :

فقد جعلت قلوص بني سهيل من الأكوار مرتعها قريب

والثاني يجري مجرى وجد فيتعدى الى مفعول واحد نحو قوله عز وجل :

(وجعل الظلمات والنور - وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)

---

١ - المعجم العربي /دكتور حسين نصار ،ج ١ ص ٤٩

والثالث في ايجاد شئ من شئ وتكوينه منه نحو (وجعل لكم من انفسكم أزواجا - وجعل لكم من الجبال أكنانا - وجعل لكم فيها سبلا) .

والرابع في تصيير الشئ على حالة دون حالة نحو (الذى جعل لكم الأرض فراشا)وقوله (جعل لكم مما خلق ظلالا - وجعل القمر فيهن نورا)وقوله تعالى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) .

والخامس الحكم بالشئ على الشئ حقا كان أو باطلا فأما الحق قوله تعالى (انا رادوه اليه وجاعلوه من المرسلين)وأما الباطل فنحو قوله عزوجل (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا - ويجعلون لله البنات - الذين جعلوا القرآن عضين)والجعالة خرقة ينزل بها القدر والجعل والجعالة والجعيلة ما يجعل للانسان بفعله فهو أعم من الأجرة والصواب وكذب يجعل كناية عن طلب السفات والجعل دونه) .

والراغب ينظر الى النحو نظرة أوسع من النحويين فالأدوات عنده أوصل بالمعنى وعلى هذا فقد اهتم بها اهتماما كبيرا وخاصة تلك التى استعملها القرآن بكثرة مثل كلمة "الى "حيث يقول فيها (الى حرف يحد به النهاية من الجوانب الست . . . "وإلا "للاستثناء "وإلا "وأولا "وأولا "في قوله تعالى ها أنتم أولا "تحبونهم)وقوله أولئك اسم مبهم موضوع للاشارة الى جمع المذكر والمؤنث ولا واحدة لهم من لفظه وقد يقصر نحو قول الأعشى :

هؤلاء ثم هؤلاء كُلاّ أعطيـــ ت نوالا محذوة بمثـــال .

وعن مادة (اياه يقول : (. . . وايان لفظ موضوع ليتوصل به الى ضمير المنصوب اذا انقطع عما يتصل به وذلك يستعمل اذا تقدم الضمير نحو "اياك نعبد "أو فصل بينهما بمعطوف عليه أو بالا نحو "نرزقهم واياهم "ونحو "وقضى ربكم الا تعبدوا الا اياه "وأى كلمة موضوعة لتحقيق كلام متقدم نحو أى وربى انه لحق وأى ،وآ ،وأيا من حروف النداء تقول اى زيد ،وايا زيد وأزيد . وأى كلمة ينبه بها أن ما يذكر بعدها شرح وتفسير لما قبلها) .

وأيضا في حديثه عن مادة أوى حيث يحدد استعمالات حرف الألف فيقول (. . . . . والألفات التي تدخل لمعنى على ثلاثة أنواع نوع في صدر الكلام ونوع في وسطه ونوع في آخره فالذي في صدر الكلام أضرب :

الأول : ألف الاستخبار وتفسيره بالاستخبار أولى من تفسيره بالاستفهام اذ كان ذلك يعمه وغيره نحو الانكار والتبكيت والنفي والتسوية فالاستفهام نحو قوله تعالى "أتجعل فيها من يفسد فيها" والتبكيت اما للمخاطب أو لغيره نحو "أذهبت طيباتكم - أتخذتم عند الله عهدا - الآن وقد عصيت من قبل - أفان مات أو قتل - أفان ت فهم الخالدون - أكان للناس عجبا - الذكرين حرم أو الأنثيين" والتسوية نحو "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" وهذه الألف متى دخلت على الاثبات تجعله نفيا نحو لخرج هذا اللفظ ؟؟ ينفي الخروج فلهذا سأل عن انتفاء نحو ما قصد / وإذا دخلت على نفي تجعله اثباتا لأنه يصير معها نفيا يحصل منهما اثبات نحو "ألست بربكم - أليس الله بأحكم الحاكمين - أولم يروا أنا نأتي الأرض - أولم تأتهم بينة - أولا يرون - أولم نعمركم" والثاني ألف المخبر عن نفسه نحو أسمع وأبصر والثالث ألف الأمر قطعا كان أو وصلا نحو أنزل علينا - ابن لي عندك بيتا في الجنة" ونحوها الرابع الألف مع لام التعريف نحو العالمين . الخامس ألف النداء نحو أزيد أي يا زيد .

والنوع الذي في الوسط ، الألف التي للتثنية والألف في بعض الجموع مثل مسلمات ونحو ساكن . والنوع الذي في آخره ألف التأنيث في حبلى وفي بيضاء . والألف الضمير في التثنية نحو اذهبا . والذي في أواخر الآيات الجارية مجرى أواخر الأبيات نحو " وتظنون بالله الظنونا - وأضلونا السبيلا " لكن هذه الألف لا تثبت معنى وانما ذلك لاصلاح اللفظ) .

فهو هنا يتقصى جميع استعمالات الألف المختلفة ويتعرض لأقوال العلماء فيما ذهبوا اليه . وهناك كثيرة غير هذا تعرض فيها للنحو ولا سيما بالنسبة للحروف المؤثرة في المعنى

كحرف الباء والسين والباء والميم وعادة أن وان وإذن وهو في هذا انما يساير آراء المحدثين الذين ربطوا النحو باللغة مثل سوسير الذى يرى أنه من غير المعقول أن يفصل المعجم عن النحو ، فالنحو لديه هو الذى يبين العلاقة بواسطة الكلمات وكذلك ما نادى به كارال من أنهم يجب أن يجعل للملامح النحوية نوعا من المعنى يجب أن يعالجها المعنى وهو نفر ما أوصى به المؤتمر الذى انعقد بجامعة انديانا في نوفمبر سنة ١٩٦٠ ليبحث مشاكل المعاجم والذى رأى أن المعجم لا يستغنى عن النحو وذلك أنه يعرض الصيغ في صورة نحوية ونادى بأن تكون للمعاجم مقدمة موجزة في نحو اللغة التى يعرضها . (١)

كذلك كان الراغب يتعرض للقراءات خلال استعراضه للمادة كما في مادة أتى بمعنى المجئ فهو يستشهد بقراءة عبد الله وكذلك بقراءة حمزة .

أما عن استشهاداته فان اعتماده أساسا كان على القرآن الكريم وبجانبه فانه استشهد بالحديث والشعر وأقوال العلماء ومذاهب الفقهاء . ومما نلاحظه في هذا المجال هو قلة استشهاده بالحديث مما يدلنا على أنه لم يكن محدثا ولهذا نراه في كتبه الأخرى يتساهل في رواية الحديث والآثار ولا يشغل نفسه بنقدها أو بترجيح بعضها أو نقد أسانيدها بل نراه يوجه عنايته الى نقوله وهو في هذه النقول لا يكاد يعزى المنقول الى صاحبه الذى نقل عنه الا في اللغة لوضوح النقل عنها . أما في النقول عن المتكلمين أو الحكماء أو الفلاسفة فانه يكتفي بذكر عامتهم ولا يخص أحدا منهم فيقول " وذهب المتكلمون " " وذهب الفلاسفة أما حين يتجه الى اللغة فيذكر أسماء أصحابها فنراه يذكر ضمن من ذكرهم ابن عباس والخليل والحبائى والزجاج وقطرب والفراء والشعبى .

ويبدو أن صفة المعتزلة التى وصم بها جاءته عن هذا الطريق حيث أن معظم هؤلاء من أئمة علماء المعتزلة . ولكنه رغم هذه النقول التى يعزيها الى أصحابها الا أنه لا يدلنا على

---

١ -

أسماء كتبهم ،وكذلك سلك نفر السلك بالنسبة لاستشهاده بالشعر فنراه يورد في أحيان كثيرة شطرة واحدة من البيت دون الدلالة على اسم الشاعر فلم يذكر منهم سوى قليل كذكره النابغة . (١)

كذلك نراه لايتوسع في ذكر آراء المدارس الفقهية حول الألفاظ الخاصة بالتشريعات أو الأحكام وانما يدع ذلك للمتخصصين - ذلك أن العبادات والمعاملات وهما يمثلان أهم أبواب العمل التشريعي لايقتصر فيهما على النص القرآني وحده بل لابد من الاستعانة في تحديدهما وبيان أحكامهما من السنة قولا كانت أو فعلا أو اقرارا وذلك فيما يقدر ميدان آخر له علماؤه المعنيون به الواقفون أنفسهم عليه ومن هنا نراه لايدخل في تفصيلات عملهم ودقائقهم فحين يتعرض لمعنى الربا يفسرها بان الربا الزيادة في المال على وجه خاص مفرقا بينه وبين الزكاة تفريقا خفيفا مسارشدا في ذلك بما يدل عليه النص القرآني في لستي استعمال الكلمتين وكذلك في حديثه عن الصلاة .

نرى الراغب يوجز في ألفاظ العبادة والفقه بعامة ويفصل القول في آيات الاعتقاد على ما تقضي به ضرورة الآية والكشف ومرجع ذلك أن الاعتقاد يدخل العقل في تحديده والاستدلال عليه أما العبادات بلا مدخل للعقل فيها وهو بهذا فانما يحدد موقفه ازاء أشياء لاتدخل في نطاق دراسته .

واذا كان هذا هو موقف الراغب من ألفاظ الشرع والعبادة فان موقفه من الألفاظ المولدة والدخيلة واضح تمام الوضوح في تعرضه للمواد اللغوية ،فنجد أنه أهمل كلمات عديدة يشير الى عجمتها دالا على أصلها مثل كلمة "دنو" حيث يقول (دنر : قال تعالى "من أن تأمنه بدينار" أصله دينار فأبدل من احدى النونين با" وقيل أصله بالفارسية دني آراى الشريعة جاءت به)وكذلك كلمة "ربانى "في مادة "رب "على أن أصلها سرياني - وأيضا مادة "عيسى" على أنها عبرية ومواد أخرى كثيرة مثل جهنم وحلت ومسيح وغير هذا من الألفاظ التي كان

---

١ - المفردات/الراغب ص ١٢

يشير الى عجمتها وكذلك فى مادة أنا على أنها كلام محدث ليس من كلام العرب .

ومما لا شك فيه أن اجادة الراغب لأكثر من لغة علاوة على ما امتاز به من حس لغـــــوى دقيق اعانة اطنة كبيرة فى ادراك الفروق الدقيقة فى اللغة وتحديد دلالة اللفظة فكـــل لفظ لديه مختص بشئ غير الآخر وهذا هو ما سنراه فى موقفه من الترادف القائم على انكـاره ويظهر هذا واضحا فى كلامه عن الأفعال فالأفعال لديه ضربان (١)الهى وانســـانـــى : فالالهى هو الخلق ويشمل الابداع والتكوين أما الانسانى فهو اما نفسى أو بدنى أو صناعى والفعل هنا لفظ عام - وهنا يفرق الراغب بين الفعل والعمل والصنع حيث يرى أن لفـــظ الفعل يقال لما كان بايجادة أو غيرها بعلم أو غيره سواء أكان من انسان أو حيوان او جماد أما الصنع فهو يكون من الانسان دون سائر الحيوان والعمل عنده فهو مقلوب عن العلم الذى هو فعل القلب والعمل فعل الجارحة وهو يبرز عن فعل القلب الذى هو العلم وينقلب عنـــه وأما الصنع فانه يكون من الانسان دون سائر الحيوان ويجمع الراغب هذا الكلام كله فـــى قضية منطقية (كل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كلا فعل عملا) ويستشهد على هذه الفروق الدقيقة بفارسية هذه الألفاظ فالفعل : كار العمل : كاردار الصنع : كنش . (٢)

ولقد كان هذا المنهج فى التفريق الدقيق بين الدلالات هو الذى سار عليه فى كـــل مؤلفاته فى الذريعة وتفصيل النشأتين والمفردات كتفريقه بين العلم والعقل والمعرفـــــة والدراية والزكاة والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهـــة والكيس والخبر (٣) . وهو بهذا المنهج فانما يحدد قدرات الانسان ما له وما عليه لا يفصل الانسان عن بيئته ومجتمعه كذلك يضع فى الاعتبار الحالة النفسية للانسان مشيرا الى عللهـا فيه وتأثيرها فالفعل الذى سبق أن تكلمنا عنه يقسمه الى قسمين : ارادى ولا ارادى وتسخيرى

---

١ - الشريعة/الراغب ص ١٦٥
٢ - الذريعة/الراغب ص ١٦٥
٣ - نفس المصدر

ولا تسخيرى وهو بهذا فانما يحدد العلاقة هذا اللفظ بالانسان وقدرته عليه ذلك أنه يسرى (ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة الا بينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقية الهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف لينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه فى مزاولتها فيقبلها باتساع قلب وبتماظاه بانشراح صدر) (١) .

فالقرآن لديه نظام مخصوص لا هو بشعر أو نثر معجزته فى عجز الناس عن الاتيان بمثله فصاحة معنى ولفظا - فالألفاظ هى ألفاظهم والمعانى موجودة لديهم فاعجازه هو نظمه والنظم هو صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصران - وهو بهذا يكون قد سبق عبدالقاهر الجرجانى فى ارساء نظرية النظم القائمة على العلاقة بين اللفظ والمعنى وكان هذا هو ما دفعه الى حصر العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى وتحديدها بخمسة نقاط هى : (٢)

١ - اتفاق اللفظ والمعنى وتسمى اللفظ المتواطئ .

٢ - اختلاف اللفظ والمعنى وتسمى اللفظ المتباين .

٣ - اتفاق فى المعنى دون اللفظ وتسمى المترادف .

٤ - اتفاق فى اللفظ واختلاف فى المعنى وهو المشترك .

٥ - اتفاق فى بعض اللفظ وبعض المعنى وتسمى المشتق.

كذلك حدد الشبهة التى تقع من هؤلاء فى الآتى :

١ - الألفاظ المشتركة .

٢ - الألفاظ المتواطئة .

٣ - الألفاظ المشتقة .

وهذا ما سنقوم بدراسته فى الفصل القادم .

ى

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٣٠

٢ - نفس المصدر ص ٣٩٥

الفصـــــل الرابـــــع

موقف الراغب من المشكلات اللغوية والدينية ومنهجه فيهما :

١ - المشتـــرك اللفظـــي :

حدد الراغب نفسه في كتاب المفردات بألفاظ القرآن الكريم كما صرح في مقدمة المفردات (فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ووسطته وكرائمه وعليه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم واليها مفزع حـــذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم . وما عداهـــا وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالاضافة اليها كالقشور والنوى بالاضافـــة الى أطايب الثمرة وكحثالة والتبن بالاضافة الى لبوب الحنطة) .

ومن هذه النظرة الى ألفاظ القرآن الكريم انفرد الراغب عن غيره من المعجميين بنظريـــة تحقيق الألفاظ فهو يرى أن عملية التحقيق هذه ضرورية ولازمة لمن أراد أن يشتغل بعلـــوم القرآن وذلك أن ألفاظ الكتاب مرتبطة ارتباطا كبيرا بالشرع المنظم لحياة الأمة الاسلاميـــة والمحدد لمعاملاتها وعقيدتها وليس شرح أصل (تحقيق) الألفاظ لديه هو فهم القـــرآن الكريم فقط بل يرى أن هذه العملية تتعدى هذه الحدود فهي نافعة في كل علم وعلى هذا يقول في مقدمة مفرداته (وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلـــوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة وتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاول في بناء ما يريد أن يبنيه وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بـــل هو نافع في كل علم من علوم الشرع) ومن هذا انطلق في عملية تحقيق الألفاظ ونلاحـــظ أن منهج الراغب في هذا المجال هو تتبع دوران الكلمة في الكتاب واستعمالاتها فهو استقرا لاستقراء معانيها المختلفة ثم يقوم بعد ذلك بتقصي استعمالها في اللغة وذلك أنه يـــرى أن الألفاظ هي أداة الدلالة على المعاني فالأصل فيها أن تكون مختلفة وفقا لموقعهـــا وعلى هذا فهو يحدد العلاقة بين اللفظ والمعنى فيقرر أن المعاني غير متناهية أمـــا

الألفاظ فتتناهية ويوضح هذا فى مقدمته فيقول (١) (والأصل فى الألفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعانى ولكن ذلك لم يكن فى الامكان اذ كانت المعانى بلا نهاية والألفاظ مع اختلاف تركيبها ذات النهاية وغير المتناهى لا يحويه المتناهى فلم يكن بد من وقوع اشتراك فى الألفاظ) .

اذا فالراغب يرى أنه نتيجة لهذه الصلة فلابد أن هناك تغير مطرد فى دلالة اللفظ حتى يكون بينه وبين المعنى نوع من التكافؤ ومن هنا قد يحدث بين الألفاظ بعض الاشتراك الذى يؤدى الى غموض الاسلوب أو الاستعمال وكان لابد كما رأى الراغب أن يحدد اللغوى هذه العلاقة وان تعددت وجوهها حتى يكون الناظر فى الاسلوب على بينة من هذا التعدد كى يستطيع أن يدرك بعض ما خفى من دلالات الألفاظ على تلك المعانى فمن تحديد مثله لهذه العلاقة يقول (٢) (ويجب أن يعلم أن للفظ والمعنى خمس أحوال :

الأول : أن يتفقا فى اللفظ والمعنى فيسمى اللفظ المتواطئ نحو الانسان اذا استعمل فيمن نعت وعمرو .

والثانى : أن يختلفا فى اللفظ والمعنى ويسمى المتباين نحو رجل وفرس .

والثالث : أن يتفقا فى المعنى دون اللفظ ويسمى المترادف نحو الحسام والصمصام .

والرابع : أن يتفقا فى اللفظ ويختلفا فى المعنى ويسمى المشترك والمتفق نحو العين المستعملة فى الجارحة ومنبع الماء والدينار وغير ذلك .

والخامس : أن يتفقا فى بعض اللفظ وبعض المعنى ويسمى المشتق نحو ضارب وضرب .

والذى يقع فى الاشتباه من هذه الخمسة : الألفاظ المشتركة والألفاظ المتواطئة هل هى علمة أو خاصة والمشتقة مما اشتق كقولهم النبى والبرية منهم من قال من أنبأ وبرأ فتركت الهمزة ومنهم من قال من النبوة وهى الربوة ومن البرا وهو التراب) .

---

١ - مقدمة التفسير / الراغب ص ٢٩٥

٢ - نفس المصدر

اذا فهو في تحديده لهذه العلاقة لا يعترف بالاشتقاق الكبـــر للفنون التسعـــم الذى أخذ به ابن جنى القائم على الافتراض وتقاليب الكلمة على وجوهها المختلفة وهو ذات المنهـــج الذى أبتدعه الخليل في ترتيب مواد اللغة حتى يحدد المهمل والمستعمل .

وبهذا يكون الراغب قد حدد مواطن الاختلاف والاضطراب الذى قد يقع فيه المفســـر والاشتباه الذى يحدث له . فالاشتباه من جهة اللفظ قد يقع من جهة مفردات اللفظـــة أو مركباتها فان كان من مركبات اللفظة فهو دال على أن اللفظة مشتركة بين معنيين كالعين واليد أو أن تكون اللفظة عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام أو مستعملا علـــى سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقرب صورة ذلك الشئ بنفس السامـــع ولهذا فهو يعزى كثير من الاضطراب الذى يصاحب فهم النص سواء أكان تأويلا أو تفسيـــرا لهذا النوع . (١)

أما من جهة التركيب فالشبه تقع لديه من جهتين :

١ - الكمية : وهى أن يكون اللفظ أكثر أو أقل مما يجب أن يكون .

٢ - الكيفية : وهى الاستعمال كالتقديم والتأخير .

والراغب في هذا يساير الامام الشافعي في رسالته حين تكلم عن العام الذى يراد بـــه الخصوص والعام الذى يدخله الخصوص والفيصل في ذلك كله هو الاستعمال مرتبطا بالفكـــرة المدلول عليها بالنص موصلا كل أولئك بالمجتمع المتفهم لهذا النص المتدين به أو المتشـــرع بما جاء فيه . وقد لحظ ذلك الشافعي حيث تحدث عن الألفاظ المتواطئة بهذه الصـــورة التي أشرنا اليها موازنا بين الاستعمال القرآني وبين المأثور عن العرب من الأساليـــب التي تجتمع والقرآن في هذا الصدد .

أما أوصاف اللفظ المشترك لديه فهو أن يستوى اللفظان في ترتيب الحروف وعددهـــا وحركتها ويختلفا في المعنى نحو عين وكلب فأما اذا اختلف ترتيب الحروف نحو حلم وحمـــل

---

١ - الذريعة/الراغب ص ٩٤

أو العدد نحو القتل والفنا أو الحركة نحو قدم وقدم أو لم يختلفا في المعنى نحو الانسان فان ذلك ليس من الاسماء المشتركة .

أما عن سبب الاشتراك في اللفظ فانه يرى أنه يقع لعدة وجوه : (١)

اما أن يكون في لغتين نحو الصقر للمن اذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب والصقر للدبس في لغة أهل المدينة .

واما أن يكون أحدهما منقولا عن الآخر أو مستعارا والفرق بينهما أن المنقول هو الذي ينقله أهل صناعة ما عن المعنى المصطلح عليه أولا الى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته فيبقى بعد مشتركا بين المعنيين كلفظة الزكاة والصلاة .

وأما المستعار فهو الاسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر وهذا المعنى الآخر له اسم وضعي غير هذا الاسم المنقول والامر في هذا يعتمد على التشبيه .

ومن هنا عني الراغب في مفرداته بهذا النوع من الألفاظ ليبان وجوه الاشتراك وهل هو اشتراك يرجع الى اختلاف اللهجات أو الى التواضع والاصطلاح أو النقل عن طريق التشبيه .

وهذا كله لديه خاص باللفظة المفردة فاذا ما انتهى الأمر الى التركيب الحاصل بين جملة من الألفاظ من حيث دوران الكلمة في أماكن متعددة من الاستعمال القرآني واختلف في ذلك معناها ضيقا واتساعا فانه يتحدث هنا عن الاشتباه الحاصل في الترتيب وهو ما أخذ نفسه به في المفردات حيث يقول (. . . اما أن يكون الغموض راجعا الى جهة المعنى أو من جهة اللفظ فان كان من جهة المعنى فلا سبيل الى ازالته بتغيير العبارات

أن المعاني ضربان : جلي وخافي (غامض) يمكن ادراكه بأدنى تأمل كقوله تعالى "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ".

وأما الغامض فعلى ثلاثة أضرب : الأول أن يكون المعنى في نفسه خفيا نحو الكلام في صفات

---

١ - مقدمة التفسير / الراغب ص ٢٩٦

البارئ سبحانه ونفى التشبيه عنه والثانى أن يكون الكلام أصلا يشتمل على فروع تتشعب منه كالآيات الدالة على الأحكام والثالث أن يكون مثلا دائما كقولهم "فى الصيف ضيعت اللبن" وذلك لأن ظاهره ينبئ عن شئ والمقصود غيره).

ولذلك نرى الراغب تحديد معانى الكلمات التى استعملها القرآن فى القصص يكاد يكتفى بالمعنى المادى فقط أى المعنى الظاهر .

٢ - مادية اللغة :

كان التصور اللغوى عند المعتزلة ونظرتهم للغة على أن كلها مجاز هو الصباح الذى أنار الطريق أمام اللغويين العرب لكشف النقاب عن مادية اللغة وهو أمر لم يفطن اليه أحد قبله مما جعل الأمر عسيرا بعد ذلك على من نادوا بمادية اللغة كابن جنى الذى قرر واقعا لا مندوحة فيه وذلك أنه حين يقرر ذلك يرى من حوله ركاما من المواد اللغوية تتصل بالمادة ويعبر عنها وينتقل من ذلك التعبير الى التجريد واللغات جميعها قد تنسى هذا المادى وتعدوه الى التجريد فى كثير من موادها وقد يستعمل الأسلوبان جميعا فى أساليب مختلفة وموضوعات يرتبط كل منها بمجال خاص .

ثم أن الزمخشرى حين تصدى لدراسة النص القرآنى أحس أن ملاحظة هذا الاشتقاق والتدرج فى حياة الألفاظ يهدى مفسر النص الى أمور خطيرة فى عملية التفسير أو التأويل فكان الى نص على الاصل المادى للفظة وقد قاده هذا الى وضع معجمه أساس البلاغة والذى كان يشير فيه الى الأصل المادى للغة .

اما الراغب الأصفهانى فقد قام بمحاولة تطبيق مادية اللغة على اللفظة الأمر الذى لم يفطن اليه من سبقوه فكان ازاء ذلك يرى أمرين :

١ - أن المادة اللغوية منذ أن نشأت الى ما وصلت اليه فانها تمر عبر تاريخ وعلى ذلك فلها بداية وغاية وأن ما بينهما انما مثل مرحلة التطور فى حياة اللفظة وأن البداية تمثل الأصل المادى .

٢ -أما الغاية فهى النهاية التجريدية ولعل أوضح مثال يوضح لنا هذا مادة "يد" فهى عنده الجارحة ثم هى النعمة ثم هى القوة وأيضا كلمة عرش فهى تعنى عنده الشئ السقف ثم هو هودج المرأة ثم هى عرش الملك (الملك) ثم هى الكرسى وأيضا مادة "أرض" وفيها يقول (الأرض الجرم المقابل للسماء وجمعه أرضون ولا تجئ مجموعة فى القرآن ويعبر بها عن أسفل الشئ كما يعبر بالسماء عن أعلاه قال الشاعر فى صفة فرس :

وأحمر كالديباج أما سماؤها .. فريا وأما أرضها فمحول

وقوله تعالى (اعلموا ان الله يحيى الارض بعد موتها) عبارة عن كل تكوين بعد افساد وعود بعد بدء ولذلك قال بعض المفسرين يعنى به تليين القلوب بعد قساوتها ويقال أرض أريضة أى حسنة النبت وتأرض النبت تمكن على الأرض فكثرت وتأرض الجدى اذا تناول نبت الأرض والأرضة الدودة التى تقع فى الخشب من الأرض يقال (أرضت الخشبة فهى مأروضة) .

وهكذا نرى الراغب يحرص على النص على هذه المادية ما وسعته الحيلة وأعانه الاستقصاء كما أن البحث عن هذه المادية أعانه على جمع المتفرق من شعاب المعنى واستقصاء وجوه استعماله اسما وفعلا ومصدرا واسم فاعل واسم مفعول كما مكن له من ملاحقة الفروق بين وجوه الاستعمال وهذا الجمع فقد تكشف له به أن هذه الفروق الدقيقة أزالت ما عسى أن يلمح من غير تأمل من وجوه تناقض بين التعبيرات القرآنية كما فى مادة هدى وفيها يقول (الهداية دلالة بلطف ومنه الهدية وهوادى الوحش أى متقدماتها الهادية لغيرها وخير ما كان دلالة بهدية وما كان اعطاء بأهديت نحو أهديت الهدية وهديت الى البيت أن قيل كيف جعلت الهدايا دلالة بلطف وقد قال الله تعالى "فاهدوهم الى صراط الجحيم - ويهديه الى عذاب السعير".

قيل ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة فى المعنى كقوله "أبشرهم بعذاب أليم" وقول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

وهداية الله تعالى للانسان على أربعة أوجه . . . . والهدى والهداية فى موضع اللغة واحد لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو الى الانسان نحو "هدى للمتقين - أولئك على هدى من ربهم . . . "والاهتداء يختص عما يتحراه الانسان على طريق الاختيار أما فى الأمور الدنيوية أو الأخروية قال تعالى "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها . . . "ويقال ذلك لطلب الهداية نحو "واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون "ويقال المهتدى لمن يقتدى بعالم نحو "أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون "تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم وقوله "فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها "فان الاهتداء ها هنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء ومن تحريها وكذا قوله "وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون "وقوله "وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى "فمعناه ثم أدام طلب الهداية ولم يفتر عن تحريه ولم يرجع الى المعصية . . . والهدى مقتر بما يهدى الى البيت . . . والهداية مختصة باللطف الذى يهدى بعضنا الى بعض، قال تعالى "وانى مرسله اليهم بهدية - بل أنتم بهديتكم تفرحون "والمهدى الطبق الذى يهدى عليه والمهداء من يكثر اهداء الهدية . . . . . والهدى يقال فى الهدى وفى العروس هديت العروس الى زوجها وما أحسن هدية فلان وهدية أى طريقته وفلان يهادى بين اثنين اذا مشى بينهما معتمدا عليهما وتهادت المرأة اذا مشت مشى الهدى) .

وهكذا نجد الراغب يصر على البحث عن مادية اللغة ويتخذها منطلقا فى تحديد الخطوات التى صارتها اللفظة .

وذلك أن هذه المادية فى الأصل فى توقيفنا على اللفظة هل هى حقيقة أم مجاز كذلك تدلنا على مراحل تطور اللفظة منذ أن وضعت وفى هذا يتعرض الراغب الأصفهانى

لمشكلتين من أهم المشاكل اللغوية وهما المجاز والترادف .

٢ - موقف الراغب من المجـــاز :

سبق أن تكلما عن موقف الراغب من العلاقة بين اللفظ والمعنى وبينا فيها أنه يـــرى أن الألفاظ محدودة أما المعانى فغير محدودة فعلى هذا فان الألفاظ قاصرة المعانى ومن هنا ظهر التجوز فى اللغة . وهذا التجوز هو عملية جماعية يقوم بها المجتمع ككل فى فترة زمنية متباعدة . والحقيقة فان المجاز قد أثر فى اللغة تأثيرا كبيرا خاصة فـــى ميادين الأدب كما أنه ساعدها على الاتساع والنمو والتعبير وذلك أن كثيرا من الألفـــاظ الغربية الدالة على المعانى الكلية والظواهر النفسية منقولة فى الأصل من الأمور الحسية(١) عن طريق المجاز ثم شاع استعمالها فى معانيها الجديدة حتى أصبح اطلاقها عليها مـــن قبيل الحقيقة اللغوية .

ولا شك أن المتصدى للنمر لا يدق عنه الا اذا كان واعيا بطبيعة هذا التجوز فـــى الألفاظ ذلك أن اللفظ المجاز لا يظل مجازا على طول الزمن فربما يكون حقيقة متعارفـــا عليها فى بيئة من البيئات وقد اختلف العلماء ازاء المجاز اختلافا كبيرا فمنهم من أنكـــره ومنهم من رأى أنه الغالب على اللغة وقد أورد السيوطى فى المزهر جملة أقوال العلمـــاء فى المجاز ويهمنا منهم رأيين : رأى ابن جنى الذى ذهب الى أن اللغة كلها مجـــاز ورأى الاسفرايينى الذى لنكر المجاز فى اللغة .

فالاسفرايينى يرى أن حد المجاز عند مثبتيه أنه كل كلام تجوز به عن موضوعه الأصلى الى غير موضوعه الأصلى لنوع مقارنة بينهما فى الذات أو فى المعنى أما المقارنة فى المعـــنى عنده كوصف الشجاعة والبلادة وأما فى الذات فكتسمية المطر فى السماء وتسمية الفضيلـــة غائطا والغائط : الموضوع المطمئن من الأرض كانوا يرتادونه عند قضاء الحاجة فلما كثر ذلك

---

١ - فقه اللغة/على عبد الواحد ص ١٦٨

نقل الاسم الى الفضلة وهذا يستدعى منقولا عنه متقدما ومنقولا اليه متأخرا وليس في لغة العرب تقديم وتأخير بل كل زمان قدر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة فقد نطقت فيه بالمجاز وذلك أن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها اذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم ويجوز تغييرها أما اللغة فانها تدل بوضع واصطلاح والعرب نطقت بالحقيقة والمجاز على وجه واحد فجعل هذا حقيقة وهذا مجازا ضرب من التحكم .

وقد قام السيوطي (١) بتفنيد هذا الرأى دالا على أن الحقيقة لابد من تقديمها على المجاز فانه لا يعقل وجود المجاز الا اذا كانت الحقيقة موجودة أولا كذلك عن قوله أن العرب وضعت الحقيقة والمجاز وضعا واحدا فان السيوطي يرى أن العرب قد سمت الانسان أسدا لمشابهته الأسد في المعنى الشجاعة .

أما الرأى الآخر وهو رأى ابن جنى فانه يرى أن المجاز يقع لمعان ثلاثة (٢) هي الاتساع والتوكيد والتشبيه فان عدمت الثلاثة تعينت الحقيقة وعلى هذا فان أكثر اللغة مجازا لحقيقة ويضرب ابن جنى مثلا وهو (قام زيد) فهو يعزى اليه هذا الجنس من الفعل فالجنس يطلق على الماضي والحاضر والمستقبل والكائنات من كل من وجد منه القيام والانسان لا تجتمع فيه القيام كله في وقت واحد فقام زيد عنده مجاز لا حقيقة على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير .

ومن هذين الرأيين يتضح لنا مدى اختلاف العلماء في وضع المجاز .

أما الراغب فانه يرى أن الحقيقة والمجاز ضدان اذا عرف أحدهما عرف الآخر والحقيقة لديه تستعمل في اللفظ والمعنى ولكن اذا استعملت في المعنى فان استعمالها في حقيقي ويستعمل ضدها المجاز والتسمح والتوسع فيقال هذا فعل واقتضاء وخبر فيه تجوز وتسمح وتوسع ولا فرق بين أن يكون مثل هذا الخبر بلفظ مجاز أو حقيقة والمجاز لديه يقع

---

١ - المزهر/السيوطي جـ ١ ص ٣٦٥
٢ - المزهر/السيوطي جـ ١ ص ٣٥٦

في المفردات(١)والجمل فالذى يقع في المفردات اما أن يكون بنقل مثل فلان عظيم الحافر أى القدم أو بزيادة نحو انظر في انظار أو نقصان نحو " رعى الله بمتالع فابان" أى المنازل .

ويرى الراغب أيضا أن اللفظ يحتمل الوجهين الحقيقة والمجاز مثل فلان عظيم الاقدام من حيث استعمل القدم حقيقة ومن حيث أتى بلفظ الجمع مجازا .

أما المجاز الذى يقع في الجمل فهو لا يكون الا بحذف أو زيادة والراغب في هذا لا يقصد بالمجاز في الجملة المجاز العقلى وانما يقصد المجاز بالحذف كما أنه يؤكد أنه لاضرورة لما نسميه مجازا عقليا ويظهر هذا جليا عنده حين يحدد علاقة اللفظ بالله مرة وبالانسان مرة أخرى فمن الأفعال ما يراه منسوبا الى الله تعالى منفية عن العباد (٢)أو منسوبة الى العباد منفية عن الله تعالى كقوله " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم " وقوله " وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى " وقوله " وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك".

ومن هذه الجمل فانه لا فاعل في الحقيقة منفردا غير الله اذ يحتاج كل فاعل الى معلوم والرحمن منزه عن هذا فهو الفاعل الحقيقي وما سواه فاعل على ضرب من التوسع وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين على أن الأفعال كلها بمشيئة الله وارادته . (٣)

ومن هذه الآراء ونظرته الى المجاز العقلى نرى أن الراغب لا يعترف به ولا يقيم وزنا في فهم النصوص المتعلقة بالاعتقاد والا أدى ذلك الى الخلاف والنزاع فالفعل المتعلق بالايجاد يصح أن ينسب الى سببه ومكانه وزمانه أما الايجاد المطلق فهو ينسب الله تعالى وكذلك "شاء" اذا استعملت فيه تعالى فبمعنى الشائى واذا استعملت في غيره فبمعنى المشاء وهذا المبدأ الذى يقرره الراغب ينفى وجود ما يشعر بالتناقض بين الآيات .

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٦
٢ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٨
٣ - الذريعة/الراغب ص ١٦٦

٤ - موقف الراغب من الترادف :

يعتبر الترادف سمة مميزة للغة العربية وأثره في اللغة لا يقل خطورة عن أثر المجاز. والترادف كما عرفه الامام فخر الدين الرازي (١) (هو الألفاظ المفردة الدالة على شئ واحد باعتبار واحد واحترزنا بالافراد عن الاسم والحد فانهما لمترادفين وبوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم فانهما دلا على شئ واحد لكن باعتبارين : أحدهما على الذات والآخر على الصفة) .

وكما اختلف أهل اللغة على المجاز من قبل فان اختلافهم كان أشد على الترادف وقد ذهب فريق كبير من علماء اللغة الى انكاره وبين الإمام فخر الدين هذا حين أرجع ظنهم عن المترادفات على أنه من المتباينات حيث يقول (٢) (ومن الناس من أنكره وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات اما لأن أحدهما اسم ذات والآخر اسم الصفة أو صفة الصفة قال : والكلام معهم اما في الجواز ولا شك فيه أو في الوقوع اما من لغتين وهو أيضا معلوم بالضرورة أو من لغة واحدة كالحنطة والبر والقمح وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شيء فضلا عن حجة) .

كذلك ذهب كتاب السبكي في شرح المنهاج الى انكار الترادف في اللغة (٣) على أنه من المتباينات التي تتباين بالصفات كما في الانسان والبشر في موضوع باعتبار النسيان أو أنه يؤنس والثاني أنه بادئ البشرة .

وأيضا سلك هذا المذهب ابن فارس في كتابه فقه اللغة حيث يرى أن الاسم واحد وما به من الألقاب فهو صفات فكل صفة لديه معناها وهي مخالفة لمعنى الأخرى .

وقد سلك الأصوليون أيضا نفر السلك في انكارهم للترادف ويرجعون ذلك الى سببين :

---

١ - المزهر/السيوطي ،جـ ١ ص ٤٠٢

٢ - نفس المصدر

٣ - المزهر/السيوطي جـ ١ ص ٤٠٣

الأول : أن تضع احدى القبيلتين أحد الاسمين والأخرى الاسم الآخر للمسمى فيشتهـــر الوضعان ويخفى الواضعان أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر وهذا مبنى على كـــــون اللغات اصطلاحية .

الثانى : أن يكون من واضع واحد بقصد اكثار الوسائل المعبرة لتجنب النسيان وكذلك التوسع فى طرق الفصاحة وأساليب البلاغة .

أما الدكتور على عبدالواحد (١) فيعدد الأسباب الحقيقية لكثرة المترادفات :

١ ـ طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى وقد نقل اليها هذا الاحتكـــاك طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات فغنى هذا مفرداتها .

٢ ـ أخذ جميع المعاجم عن قريش وغيرها من القبائل قدرا كبيرا من كلمات كثيرة كانت مهجورة فـــى الاستعمال ومستبدلا بها فكثرت بذلك المفردات ومترادفاتها .

٣ ـ أن كثيرا من الكلمات التى تذكرها المعاجم على أنها مرادفة فى معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة فى الأصل لهذه المعانى بل مستخدمة فيها استخداما مجازيا .

٤ ـ أن الأسماء الكثيرة التى يذكرونها للشئ الواحد ليست جميعها للمولى الواقع أسماء بل هى صفات مستخدمة استخدام الأسماء .

٥ ـ أن كثيرا من الألفاظ التى تبدو مترادفة هى فى الواقع غير مترادفة بل يدل كل منهـــا على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التى يدل عليها غيره .

أما عن موقف الراغب من الترادف فهو ينكره يدلنا على هذا ما جاء فى مقدمة مفرداتـــه عن تأليفه كتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينهما مـــــن الفروق الفاخرة وذلك بقصد اختصار كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره مـــــن اخوانه كذكر القلب والفؤاد والصدر ونحو ذكره تعالى "إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنـــــون"

---

١ ـ فقه اللغة/دكتور على عبدالواحد ص ١١٠

وأخرى "لقوم يتفكرون" وفى أخرى "لقوم يعلمون" وفى أخرى "لقوم يتفقهون" .

فهو يرى أن من فسر الحمد لله بقوله الشكر لله ،ولا ريب فيه بلا شك فيه فقد فسر القرآن ووفاه البيان ان ذلك باطل فكل لفظ عنده لديه اختصاصه وموقعه من الجملة كما جاء فى مادة صبر حيث يقول (الصبر الامساك فى ضيق يقال صبرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلانا خلفته خلفة لا خروج له منها ،والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عليه والصبر لفظا عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فان كان حبس النفس لمصيبة سمى صبرا لاغير ويضاده الجزع وان كان فى محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى نائبة مضجرة سمى رحب الصدر ويضاده الضجر وان كان فى امساك كلام سمى كتمانا ويضاده المذل وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا ونبه عليه بقوله " والصابرين فى البأساء والضراء - والصابرين على ما أصابهم - والصابرين والصابرات. .) .

وكذلك فى تفسيره لمادتى شك وريب حيث يقول عن الشك (الشك اعتدال النقيضين عند الانسان وتساويهما وذلك قد يكون لوجود امارتين متساويتين عند النقيضين أو لعدم الامارة فيهما والشك ربما كان فى الشئ هل هو موجود أو غير موجود ؟ وربما كان فى جنسه من أى جنس هو وربما كان فى بعض صفاته وربما كان فى الغرض الذى لأجله أوجد . والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسا فكل شك جهل وليس كل جهل شك قال " لفى شك مريب - بل هم فى شك يلعبون - فان كنت فى شك " واشتقاقه اما من شككت الشئ أى خرزته قال :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فكأن الشق الحذق فى الشئ وكونه بحيث لا يجد الرأى مستقرا يثبت فيه ويعتمد عليه ويصح أن يكون مستعارا من الشك وهو لصوق العضد بالجنب وذلك أن يتلاحق النقيضان فلا مدخل للفهم والرأى لتخلل ما بينهما ويشهد لهذا قولهم التبس الأمر واختلط واشكل

ونحو ذلك من الاستعارات والشكة السلاح الذى به بشك أى يفصل) .

أما عن مادة ريب ففيه يقول (ريب : يقال رابنى كذا وأرابنى قال أن تتوهم بالشئ أمرا ما فينكشف عما تتوهمه قال الله تعالى "يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث - فى ريب مما نزلنا على عبدنا " تنبيها أن لاريب فيه وقوله "ريب المنون "سماه ريبا لا أنه شكك فى كونه بل من حيث تشكك فى وقت حصوله فلا نسان أبدا فى ريب المنون من جهة وقته لا من جهة كونه وعلى هذا قال الشاعر :

الناس قد علموا أن لا بقاء لهم لو أنهم علموا مقدار ما علموا

ومثله "أمن المنون وريبها تتوجع "وقال تعالى "لفى شك منه مريب - معتد مريب "والارتياب بجرى مجرى الارابة قال "أم ارتابوا أم يخافون - وتربصتم وارتبتم "ونفى عن المؤمنين الارتياب فقال " ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون "وقال ز سمى لم يرتابوا "وقيل "دع ما يريبك الى ما لا يريبك " . وريب الدهر صروفه وانما قيل ريب لما يتوهم فيه من الكسر والريبة اسم من الريب قال "بنوا ريبة فى قلوبهم أى تدل على دغل وقلة يقين .

٥ - تحقيق الألفاظ :

لما كانت الغاية المقصودة عند كل متصد أو مفسر للنص القرآنى هو بيان معانيه فقد أدرك الراغب بحسه اللغوى بأن هذا لن يتأتى الا بعملية تحقيق الألفاظ وعلى هذا أشار اليها فى مقدمته على أنها من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانى القرآن - والواقع فان تحقيق هذه الألفاظ ليس بالامر اليسر على الدارس المحدود ثقافة القيام به فالأمر يتطلب أمورا شتى ليس بوسع أحد أن يجمع كلها وقد قام الراغب بتوضيح الصفات المطلوبة للمتصدى للقرآن . (١)

(فجملة العلوم التى هى الآلة للمفسر ولا يتم صناعته الا بها هذه العشرة :

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٢٤

علم اللغة والاشتقاق والنحو القراءات والسير والحديث وأصول الفقه وعلم الأحكام وعلم الكلام وعلم الموهبة فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها خرج من كونه مفسرا للقرآن برأيه ومن نقص عن بعض ذلك مما ليس واجبه معرفته في تفسير القرآن وأحس من نفسه في ذلك بنقصه واستعان بأرباب واقتبس منهم واستضاء بأقوالهم لم يكن انشاء اللع من المفسرين برأيهم فان القائل بالرأى هنا من لم تجتمع عنده الآلات التي استعانوا بها في ذلك تفسره وقال فيه تخمينا وظنا فانما جعله النبي عليه السلام مخطئ وان أصاب فانه مخبر بما لم يعلمه وان كان قوله مطابقا لما عليه الأمر في نفسه) .

وذلك أن على المتصدى للنفسير عند قيامه بعملية تحقيق الألفاظ أن يتابع اللفظ منذ نشأتها أو استعمالها الأول فالألفاظ التي استعملها القرآن هي الألفاظ التي يستعملها الناس فيما يكتبون والمشرعون في حجاجهم واستنباط الأحكام .

وهذه الألفاظ لم تبق على ما كانت عليه منذ أن نزل بها الوحي بل عملت في دلالاتها أحداث الزمن وتدرج الفكر وتنوع الحضارة . ومن هنا ربط الراغب بين هذا وبين اباحة التفسير هل يصح أن يكون هناك تفسير بالرأى أو لا ينبغي وما هي ثقافة ذلك المفسر .

الواقع فان الراغب لا ينفي التفسير بالرأى وانما يرجع الاباحة والحظر الى نوعية الدلالة التي يريد القرآن الكريم أداءها للناس فما كان سنة كالحديث عن القيامة والبعث والصواب والعقاب فالقول فيه الى الرسول الكريم(١)أما ما كان متصلا بالأخلاق والآداب فانه يتحدد تفسيره بمقتضى اللغة وعلى هذا فقد كانت اللغة هي أول العلوم التي نص عليها في ثقافة المفسر مع باقي العلوم التي ذكرها وعلى هذا فتكاد عملية تحقيق الألفاظ تحكم عمل الراغب في مفرداته . وهو في هذه العملية يعتمد اعتمادا كبيرا على تلك المادية اللغوية التي ينطلق منها دائما الى تحديد الخطوات التي مرت بها حياة اللفظة وهو ان لم

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب

يفصل مراحل التدرج فى حياة المادة فى مقدمته ولا فى أثناء عرضه لمادته اللغوية انما أشار فى مقدمة التفسير (١) الى أن للفظة حدين بداية ونهاية وأن البداية هى المعنى المادى والنهاية هى التجريد وأن الذين فسروا بعض النصوص القرآنية ومنهم من أخذ بالنهاية فالذين أخذوا بالبداية هم المجسمون والذين أخذوا بالنهاية هم البالغون بالتنزيه وهم أهل الاعتزال وأن الذين وقفوا موقفا وسطا فيكاد يتبين كلامه أنهم الأشاعرة .

ومعنى هذا أن الراغب يكاد يحدد أسباب الاختلاف بين الفرق الاسلامية فى بعض المسائل الاعتقادية فى اختلافهم فى استعمال اللغة وترجيح وجوه الدلالة فيها . ومن هنا اتخذ الراغب هذا المنهج أصلا فى ترتيب المعانى للفظة القرآنية ومن أمثلة ذلك مادة " جعل " اذ يقول فيها (جعل لفظ عام فى الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه : الأول : يجرى مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا - قال الشاعر :

وقد جعلت خلوص بنى سهيل من الأكوار مرتعها قريب

والثانى : يجرى مجرى أوجد فيتعدى الى مفعول واحد نحو قوله عز وجل " وجعل الظلمات والنور - وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة " .

والثالث : فى ايجاد شئ من شئ وتكوينه منه نحو " وجعل لكم من أنفسكم ازواجا - وجعل لكم من الجبال اكنانا - وجعل لكم فيها سبلا " .

والرابع : فى تصيير الشئ على حالة دون حالة نحو " الذى جعل لكم الأرض فراشا - ان جعلناه قرآنا عربيا " .

والخامس : الحكم بالشئ على الشئ حقا كان أو باطلا فان الحق فنحو قوله تعالى " انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين " وأما الباطل فنحو قوله عز وجل " وجعلوا لله مما ذرأ من

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب

الحرث والأنعام نصيبا - ويجعلون لله البنات - الذين جعلوا القرآن عضين " والجمالة خرقة ينزل بها القدر والجعل والجمالة والجعيلة ما يجعل للانسان بفعله فهو أعم من الأجـــرة والصواب وكلب يجهل كناية عن طلب السفاد والجعل دويبة) .

ففى هذه المادة يربط بين الاستعمال بين طبيعة الوجود نفسه وماهية هذا الوجود ســـواء أكان موجودا يتعلق بالذات العلية أم بسواه كذلك فى هذه المادة يرد بها على المعتزلـة فى قولهم بخلق القرآن "انا جعلناه قرآنا عربيا " .

كذلك من أمثلة استخدامه للمادية مع تتبع دوران اللفظة مادة " بطن " وفيها يقـــول (أصل البطن الجارحة وجمعه بطون قال تعالى " وان انتم أجنة فى بطون أمهاتكم " وقـد بطنته أصبت بطنه والبطن خلاف الظاهر فى كل شئ ويقال للجهة السفلى بطن وللجهـة العليا ظهر وبه شبه بطن الأمر وبطن الوادى والبطن من العرب اعتبارا بأنهم كشخـــص واحد وأن كل قبيلة منهم كعضو بطن وفخذ وكاهل ولى هذا الاعتبار قال الشاعر :

الناشر جسما وامام الهـــدى رأس وأنت العين فى الرأس

ويقال لكل غامض بطن ولكل ظاهر ظهر . . . والبطن كثير الأكل . . . والبطانة خـــلاف الظهارة وبطانـــة ثوبى بآخر جعلته تحته . . . وتستعار البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك قال عزوجل " لا تتخذوا بطانة من دونكم "أى مختصا بكم يستبطن أموركم . . . . . والبطان الحزام يشد على البطن . . . والبطين نجم هو بطن الحمل والتبطن دخول فـى باطن الأمر . . .) .

والراغب حين يتتبع هذه المادية منتقلا منها الى الكشف عن مدارك التطور فى حيـــاة الألفاظ ينتقل من ذلك الى تتبع الاستعمال القرآنى والبحث عن الحس الرابط بين المعانى ومن ذلك كلامه عن مادة " خزى "اذ يقول :

(خزى الرجل لحقه انكسار اما من نفسه واما من غيره فالذى يلحقه من نفسه هو الحيـــاء

الفرط ومصدره الخزاية ورجل خزيان وامرأة خزيى وجمعه خزايا وفى الحديث "اللهم احشرنا غير خزايا ولا نادمين" والذى يلحقه من غيره يقال هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى ورجل خزى قال تعالى "ذلك لهم خزى فى الدنيا" وقال تعالى "ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين - فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا - لنذيقنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا" وقال "من قبل أن نذل ونخزى ...) .

وهناك مواد كثيرة تصلح بأن يستشهد بها على منهج الراغب الأصفهانى اذ يتضح فيها دقة عمله ومهارته بالدوران باللفظة متنقلا بين منبعها المادى ثم مدارج تطورها ثم استعمالها فى القرآن الكريم .

ومما نلاحظ لدى الراغب أيضا أن تحقيق معانى الألفاظ عنده قد يترتبط بمادياتها تحدد بها دائرة المعنى ضيقا أو اتساعا ومبنى ذلك كله على العرف وهو يختلف من بيئة الى أخرى ومثال ذلك مادة "خمر" اذ يقول "أصل الخمر ستر الشئ ويقال لما يستر به خمار لكن الخمار صار فى التعارف اسما لما تغطى به المرأة رأسها وجمعه خمر قال تعالى "ليضربن بخمرهن على جيوبهن - ...." واخمرت العجين جعلت فيه الخمير ... والخمر سميت بكونها خامرة لمقر العقل وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر وعند بعضهم للمتخذ من العنب والتمر لما روى عنه صلى الله عليه وسلم "الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنبة" ومنهم من جعلها اسما لغير المطبوخ ثم كثيرة الطبخ التى تسقط عنه اسم الخمر مختلف فيها .)

ومما نلاحظه فى هذا أن الراغب فى الألفاظ المرتبطة بحكم شرعى يستقصى معانى اللفظة اذ يرى أن تلك الألفاظ لها مفهوم تشريعى يحتاج فى بيانه الى ما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل كالصلاة والزكاة وما اليه وعلى هذا فهو يكتفى فيها ببيان التدرج الدلالى لها من المادية الى التجريد فاذا ما انتهى الى كونها صارت مصطلحا فقهيا حال ذلك على أصحاب الفقه لأنهم أعرف بهذه الدلالة وأقدر على بيانها

وذلك لضرورة الالمام بالحديث والسنة فى تحديد هذه الدلالة وبيان أبعادها غير أنه يلفت الوعضرورة بعض الألفاظ مصطلحا فى الاعتقاد عند الفرق الاسلامية فيقول مثلا : وهى عند المتكلمين - عند الفلاسفة - عند الصوفية - وذهب المتكلمون وذهب . . . ولا يكاد يفصل القول فى بيان هذا المصطلح عند هذه الفرق فاذا ما عرض للفظة من ألفاظ القرآن تتصل بالهداية والتوجيه الالهى ويكاد الناظر فى كتاب الله يحسر أن فى استعمال هذه اللفظة فى أماكن متعددة ما يشبه سمتا من التعارض أسرف فى بيان الدلالة مقرنا ذلك بالاستعمال نفسه وبالموضوع الذى استعملت فيه هذه اللفظة كما رأينا فى مادة " خمر " ولعل أبرز مثال لذلك مادة "هدى " ومن هنا دفع ما يمكن أن يوجه الى النص القرآنى من احتمال التناقض والواقع فان القاضى عبد الجبار المعتزلى فى كتابه تنزيه القرآن على الطاعن أشار الى بعض احتمالات هذا التناقض وجاهد فى أن يبين دلالات الألفاظ التى اتخذها بعض الملاحدة سندا فيما ذهبوا اليه غير أن صنيع عبد الجبار يكاد يتحدث فى التفسير وحده دون النظرة الشاملة المستقصية لمدارك حياة اللفظة .

وهكذا فى كل ما سبق فانه يتضح لنا أن الراغب فى مفرداته قد عنى بعدة أمور :

أولا - التطور الدلالى للفظة من ماديتها الى معنويتها الى ما لحقها من وضع واصطلاح .

ثانيا - ملاحظة التطور فى الاستعمال مصدرا وفعلا ثم اختيار بعض المصادر دون بعض مع الاشارة الواقية لاختلاف الاستعمال باختلاف المعانى والمقاصد .

ثالثا - اللفت الى الايحاءات الناتجة عن استعمال الصيغ فى بعض المواضع دون بعض كاقامة الصلاة والمصلين .

رابعا - ربط الاستعمال بمدارج حياة اللفظة وعلاقتها بالانسان .

خامسا - عرضه لبعض المعانى الاصطلاحية التى اختلفت فيها وجهات النظار .

سادسا - محاولته التوفيق بين الألفاظ التى يقال عنه مترادفة وبخاصة فى الاستعمال القرآنى

ومنها كلة "الريب" والشك - ولما آثر القرآن استعمال الأولى فى مواضع والثانية فى مواضع أخرى فان كان فى هذا التفريق لايدخل فى تفصيلات واسعة بل يجعل ذلك لرسالة أخرى خاصة بهذه الفروق .

٦ - موقف الراغب من التفسير والتأويل :

بهذا التحقيق للألفاظ ومعانيها فان الراغب قد كشف لنا عن المنهج الأنجع والأدق فى تفسير النص وتأويله مبينا كيف يدخل الخطأ على المفسر أو المؤول الذى لا يلتزم بهذا المنهج ومن هنا فرق بين التفسير والتأويل فى مقدمته التى ضمنها أصول هذا المنهج والتى حدد فيها الطريق الذى ينبغى أن يسلكه المفسر أو المؤول وهو يرى أن القرآن وان كان فى الحقيقة هداية للبرية فان الناس لن يتساووا فى معرفته بل كل وفق ثقافته فالانسان لديه بقدر ما يكتسب من قوته فى العلم تتزايد معرفته بخوافى معانيه فكلام الله "وكل شئ أحصيناه فى امام مبين - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ" فان هذا لا يظهر الا للراسخين فى العلم وان الآية "ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا" انه عنى به تفسير القرآن الذى هو أشرف العلوم وعلى هذا فقد قام بتحديد ثقافة المفسر وحددها بعلوم عشرة هى علم اللغة والاشتقاق والنحو والقراءات والسير والحديث وأصول الفقه وعلم الأحكام وعلم الكلام وعلم الموهبة . فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها استطاع ان يفسر القرآن برأيه أما من نقص لديه شئ من هذا واستعان واقتبر فهو ليس من المفسرين برأيه أو برأى من أخذ عنه فان قوله لا يخرج عن تخمين وظن .

والراغب فى هذا التحديد لثقافة المفسر فانه يعتبر هذه العلوم هى آلة المفسر حتى يدق عمله خاصة فى عملية التفسير والتأويل وهما المصطلحان اللذان شاعا فى الأمة الاسلامية واللذان صدرت عنهما حركة التفسير القرآنى بل أن التأويل كان المنطلق الذى تشعبت منه أصول هذه الحركة .

والراغب يفرق بين التفسير والتأويل فيقول : (الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظ بينهما لكن جعل الفسر لاظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبئ عن البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء وجعل السفر لابراز الأعيان للأبصار فقيل سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح وسفرت البيت اذا كنسته . ـ والتأويل من آلة يؤول اذا رجع) . (١)

كذلك يرى الراغب أن التفسير أعم من التأويل وأصدق منه وأنه يعنى ببيان معانى الألفاظ وتقريبها أما التأويل فانه يمثل مرحلة تأتى بعد التفسير ويستعمل فى المعانى ويرجع تعميم الراغب للتفسير عن التأويل فى أنه يستعمل فى كل فروع الأدب على عكس التأويل الذى يستعمل أكثره فى الكتب الالهية اذ أنها تتفو وظيفة الكتاب الدينى فى قيادته للحياة الدينية على اختلاف العصور والأزمان ذلك أن هذا الكتاب لا يمثل العصر الذى نزل فيه وانما يشرع لمستقبل الحياة ويخطط لآمادها البعيدة ـ وكتاب ذلك شأنه يعين المشرع على أن يستنبط منه أحكام أو تشريعات تسير مع الحياة ولأن التأويل يفسح الطريق للمفسر أو المؤول فيضيف من المعانى للنص ما يراه محققا لأهدافه الكبرى فى تسيير خطى الحياة الانسانية فان الشطط أحيانا يؤخذ على المؤول الطريق فيغرق أو يمعن فى التأويد خاصة وأن التأويل يمكن استعماله استعمالا عاما كاطلاق لفظ الكفر فى الجحود المطلق أو خاصا فى الجحود بالله ولهذا فانه يقسمه الى نوعين : تأويل مستكره وتأويل مستقاد فالتأويل المستكره لديه أربعة أضرب :

الأول ـ أن يكون لفظ عام فيخصص فى بعض ما يدخل تحته نحو قوله تعالى " وان تظاهر عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح والمؤمنين " فقد حمله بعض الناس على على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الثانى ـ أن توفق بين قولين مثل من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة كما نحن مكلفون كما جاء بالآية " وان من أمة الا خلا فيها نذير " وقد قال الله تعالى " وما من دابة فى الأرض ولا

---

١ ـ مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٢

طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " .

الثالث ـ أن يستعان فيه بخبر مزور كقوله تعالى " يوم أن يكشف عن ساق "على أنـــــه الجارحة مستدلا بحديث موضوع .

الرابع ـ الذى يستعان به اشتقاقات واستعارات بعيدة كقول بعض الناس فى البقر أنـــــه يبقر العلوم .

فهو يرى أن الأول يدور على ألسنة الفقهاء الذين لم يقرؤا فى معرفة الخاص والعـــام والثانى يجرى على ألسنة المتكلمين الذين لا دراية لهم بأصول النظم وقواعده التى تكفـــل سلامة تفسير النص وتأويله وأن الثالث يشيع عند أصحاب الحديث الذين لم يتهذبوا فـــى قبول الأخبار والرابع يذيع بين الأدباء .

والتأويل المنقاد هو ما لا يعرض فيه ما سبق ذكره وليس معنى هذا أنه لا يقع فيه خـــلاف بين أصحابه وانما يصح أن يقع فيه الخلاف فى الاشتراك فى اللفظ نحو قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " هل هو العين أو القلب أو راجع الى النظم نحو قوله تعالى " وأولئـك هم الفاسقون الا الذين تابوا " فهل هذا الاستثناء محصور على المعطوف أو مردود اليـــه أو لغموض فى المعنى ووجازة فى اللفظ نحو قوله " وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم " .

ولهذا كان اعتناء الراغب بالكلام عن الحقيقة والمجاز وارتباط التأويل بالمجاز أو بظاهرة التجوز ولهذا نراه ينكر المجاز العقلى ويرى أن القول به يفتح بابا واسعا لاضطراب التأويل وفساده وانه ليس الا أسلوبا يتخذ فى عرض المعانى دون حاجة الى تشقيق القول فيـــه واتساعه . ولأن التجوز يمثل مرحلة من تدرج حياة اللفظة فى الاستعمال فان الرجل يعنى بالكلام عن الظاهر وهو كما عرفه الأصوليون المتأخرون ما يتبادر الى الذهن من المعانـــى بمجرد اطلاق اللفظ .

وفكرة الظاهر احتلت مكانا بارزا فى حياة التفسير القرآنى لا عند الفقهاء وحدهم بـــل

عند المتكلمين وأغلب مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة انما تقوم على انكار الأولين للظاهر وعلى الأخذ الآخرين به ولهذا كان لابد عند الراغب من بيان الظروف والملابسات التي تحتمل على الأخذ بالظاهر أو الأخذ به وهنا تبرز فكرة احترام العقل عند الراغب وتقدير ما يصل اليه عن طريق الاستدلال وأنه لاينبغي أن يتخ العقل جانبا في فهم النصوص القرآن وهذا هو المعنى الذى أشار اليه الغزالي فيما بعد في رسالته قانون التأويل من أنه لاتصادم مطلقا بين العقل والنقل متى سلم العقل من الآفات المؤدية الى فساد تفكيره واستدلاله .

فصلا للكلام عن الحكم التي ينطوى عليها النص القرآني سواء أكانت أحكاما عينية أو عملية وفي أن القرآن يشتمل على أصول الأدلة وأن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حدا ومطلعا يشير الى أن القرآن يعطى الناظر فيه من المعاني على قدر ما أتيح له من المعرفة واتساع الثقافة وعمق التفكير ومن هنا يختلف الناس في تفسير النص على عكس ما ذهب اليه الباطنية - ثم أن القرآن قد قسم نفسه الى محكم ومتشابه وأن هذا التقسيم يعكس طبيعة المعرفة والثقافة التي يعمق بها نظار المفسر أو المؤل للنص ومن هنا يقسم الراغب تأويل الكتاب الى قسمين ج جلي وخفي فالجلي ما يدرك بالحاسة أو ببديهة العقل - والخفي ما يتوصل اليه بغير ذلك من العلوم والمعارف وهو الذى سبق أن أشرنا اليه في تحديده لثقافة المفسر .

الفصـــــل الخامـــس

الراغـــب والفقـــه والتشريـــــع :

ويكاد الرجل ينأى بنفسه عن ترجيح مذهب على آخر وانما يعرض للالفاظ بما هـــــى معارض للمعانى ولباب لها فيقول عند تفسير قوله تعالى - والذين يظاهرون من نسائهـــم ثم يعودون لما قالوا - وهى آية الظهار يقول عند أهل الظاهر هو أن يقول للمرأة ذلـــك ثانيا فحينئذ يلزمه الكفارة وقوله تعالى " ثم يعودون " كقوله فان فاءوا ،وعند أبى حنيفـــة العود فى الظهار أن يخلو بها بعد أن يظاهر منها ،وعند الشافعى هو امساكها بعـــد وقوع الظهار عليها مدة يمكنه أن يطلق فيها فلم يفعل وقال بعض المتأخرين الظاهـــرة هى بين ومثل ذلك ما يذكره فى القرء وهل هما الطهر أو الحيض وهو يرجح أن القـــرء اسم للدخول فى الحيض عن طهر وليس الطهر امكنا للحيض مجردا ولا للطهر مجردا وقولـه تعالى يتربص بانفسهن ثلاثة قـ ء ،أى ثلاثة دخول فى الطهر من الحيـــــض - ولا نكاد نراه يتوسع فى ذكر آراء المدارس الفقهية حول الالفاظ الخاصة بالتشريعـــات أو الاحكام وانما يدع ذلك للمتخصصين ذلك أن العبادات والمعاملات وهما يمثلان أهـــم أبواب العمل التشريعى لا يقتصر فيهما على النص القرآنى وحده بل لابد من الاستعانـــة فى تحديدهما وبيان أحكامهما من السنة قولا كانت أو فعلا أو اقرارا وذلك فيما يقـــرر ميدان آخر علماؤه المعنيون به الواقفون أنفسهم عليه ومن هنا نراه لا يدخل فى تفصيـــلات عطيهم ودقائقه فحين يتعرض لمعنى الربا يقصره بانه الربا الزيادة فى المال على وجه خاص مفرقا بينه وبين الزكاة تفريقا خفيفا مسترشدا فى ذلك بما يدل عليه الحس القرآنى فـــى استعمال الكلمتين وكذلك رأيه فى الحديث عن الصلاة اذ يقول والصلاة هى العبـــادة المخصوصة التى لم تتفك بمسكها شريعة من الشرائع وان اختلفت صدرها بحسب شـــرع شرع ولذلك قال تعالى " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " .

وهكذا نرى الراغب يوجز فى شرح الفاظ العبادة والفقه بعامة ويفصل القول فـــى

آيات الاعتقاد على ما تقضي به ضرورة الايمان والكشف ويرجع ذلك الى أن الاعتقاد يدخل العقل في تحديده والاستدلال عليه ،أما العبادات فلا مدخل للعقل فيها ولا تكاد في نصوص الشريعة بهذا المعنى الذي توسع فيه القوم في حديثهم عن المعاملات كالبيع والاجارة والشفعة والرهن اذ أن هذه الاشياء كلها مما يخضع لتقدير المجتمع وعرفه ومساندة المصلحة العامة فيه وقد أشرت في حديثي السابق أن الفقهاء كانوا يفتون بأن العارية اذا هلكت في يد المستعير فلا ضمان عليه في رأيهم في ذلك المنصور الخليفة العباسي وطلب اليهم أن يضمنوه رعاية للمصلحة وحملا للمستعير مع عدم التهاون بالعارية والحفاظ عليها وقد أفتى بذلك المنصور حين أحس أن المجتمع الاسلامي قد تعقدت حياته تعقدا بالغا وأن الناس من حوله انشأوا يترخصون فيما يجب عليهم نحو العارية فاراد أن يردهم الى ما هو أصوب .

ومن أجل ذلك لم يدخل الراغب في تفصيلات واسعة لشرح ألفاظ العبادات أو المعاملات تاركا ذلك كله للمتخصصين فانهم بها أدرى وممارستهم العملية الفقهية يقتضيهم على سداد الرؤية وحسن التقدير وأصالة الرأى ،هذا الى علمهم بالحديث والسنن وهي الاصل الثاني الذي يحدد الخطى الآمنة في سير الحياة التشريعية ولعل هذا يقودنا أو يحملنا على أن نتحدث عن الراغب الناقل .

ومن الثابت أن الراغب لم يكن محدثا ولم يكن رواية الحديث ولذلك نراه يتساهل في رواية الاثار ولا يكاد يشغل نفسه بنقدها أو ترجيح بعض رواياتها ويبدو هذا التساهل عنده في المحاضرات فانه عقد فصلا عن الاثار الواردة في كبار الصحابة وهو يسردها سردا دون أن يعقب عليها أو ينقض بعض أسانيدها ثم أنه في بحوثه الاخرى وبخاصة ما يتصل منها بالتفسير لمقدمته لا يعنى بالاحاديث وروايتها أيضا ويظهر أن الرجل شغل نفسه بما هو أوقع أو وصل اليه من الكتب والبحوث التي نقل منها أو استفاد بها وهو في نقوله الكثيرة التي يوردها في المفردات لا يكاد يعزو المنقول الى صاحبه الذي نقل

عنه الا فى اللغة لوضوح النقل من كتبها عنده وسهولة النقل عنها أما فى النقول عن المتكلمين أو الحكماء أو الفلاسفة فانه يكتفى بذكر عامتهم فيقول " وذهب المتكلمون ولسنا ندرى أى المتكلمين يقصد أمتكلمى أهل السنة أشاعرة وماتريدية أم متكلمى الاعتزال وشيوخه وحين يتجه الى اللغة يذكر أسماء أصحابها وقد يناقشهم فيذكر أبا عبيدة والفراء والزجاج والخليل وسيبويه فينقل رأى أبى عبيدة فى قوله تعالى (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها)وان المراد من الدابة الانسان والاولى عند الراغب أن يراد باللفظ على العموم دون تخصيص بالانسان وقد ذكر ذلك فى مادة(دب)اذ يقول " ويستعمل فى كل حيوان وان اختصت بالتعارف فى الفرس قال تعالى " والله خلق كل دابة من ماء وقال ودب فيها من كل دابة وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه وقوله تعالى ولا يؤخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . قال أبوعبيدة عن الانسان خاصة والاولى أجزاؤها على العموم وفى كلامه عن الدهر يذكر ما حاكاه الخليل من قوله دهر فلانا نائبه دهرا أصابته ويلفت منه وكان الراغب غير مطمئن الى هذا النقل لعدم اطلاعه على نصوص استعملته فيفرده الى ناقله ليتحمل هو عهدة الحكاية والرواية كما أنه ينقل عنه أيضا ما ذهب اليه فى المعنى الأم اذ يقول الخليل والأم كل شئ ضم اليه سائره . فالامر هين اوضح من ذلك لأن الرجل كتب أيضا فى معانى القرآن يقول الراغب فى وذهب الزجاج أما نقله عن الزجاج فى قوله تعالى " ومن أهل الكتاب أمة قائمة أى ذات طريقة مستقيمة والقرآن ترك الانسان لوضوح المعنى وجلائه وفى المادة نفسها يحكى ما يذهب اليه الفراء فما معنى قوله تعالى " وفيهم أميون لايعلمون الكتاب الا أمانى. قال هم العرب اذ لم يكن لهم كتاب واستمع اليه فيما يقوله فى مادة بشر البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامة الادباء وقال ابوزيد يعكر ذلك وغلط أبوالعباس وغيره ولم يكشف لنا عن الخطأ الذى وقع فيه أبوالعباس وغيره ولكنه يذكر اجمالا .

لكن الشئ الذى يلفت النظر الى انه يقول (كذا قال عامة العلماء) وهى استعمال يدل على ما وراءه من أن الادباء فى هذه الفترة وهم الذين يتخذون الادب صناعة وحرفة اما بانتاج أدب متميز أو بالاطلاع على الانتاج السابق والافادة منها فى تصفية الحس اللغوى وتأصيله وتعميق ابعاده أولئك الادباء كانوا مصدر التفريق بين المعانى وتحديد كم كل منها وهم بلا ريب غير اللغويين الرواة الذين لا هم لهم الا الجمع والتصنيف والرواية .

واذا كان الراغب يستأنس بما يراه فان ذلك يتفق وطبيعة عمله الذى يقوم على استقراء جميع جدة المعانى التى تستعمل فيها المادة اللغوية الواحدة فى نص ادبى معجز وهم أقدر الناس على التصرف فى الالفاظ واكسابها معان جديدة بما لايجافى منطق اللغة وطرائقها فى التعبير والبيان كما أنهم القادرون على ادراك حس اللغة .

جميع افعال الله ابداع لا فى مادة ولا من شئ ولا على مثال ولا فى زمان ولا فى مكان ولا بآلة ولا بمرشد ومعين فهو الفاعل الحقيقى وما سواه فاعل على ضرب من التوسع كل فاعل يحتاج الى معاون .

يرجع الى صـ١٦٦ باب الفرق بين الفعل والعمل والصنع (ربما لباب الترادف) أو المنتج (ذكر فيها الافعال الفارسية) .

الباب الثالث

كتاب المفردات

دراسه مقارنه

الفصل الاول : كتاب المفردات دراسه مقارنه

الفصل الثانى : مقارنه بين اللغة العربية والعبرية

الفصل الثالث : المعاجم العبريه

الفصل الرابع : دراسة مقارنة بين صنيع الراغب وصنيع غيره من العلماء اليهود

الباب الثالث

كتاب المفردات مقارنا بما يشبهه من بحوث والتأريخ لحركة المعاجم العربية

الفصل الأول

الغريب ومنهج العلماء المسلمين فيه مع مقارنته بمنهج الراغب في المفردات :

بعد أن انتهينا من بيان منهج الراغب الأصفهاني في مفرداته فانه يتعين علينا أن نعرف مكانة هذا الكتاب بين أقرانه من الكتب التي ألفت في هذا المجال - ذلك أن تأليف الراغب لم يكن جديدا أو غريبا على تراثنا العربي وقد عرف هذا النوع من الدراسة منذ أن بدأ المسلمون يفسرون القول ويقلبون وجوههم بدلنا على هذا ما نسب الى ابن عباس من أنه أول من ألف في غريب القرآن وقد أشار بروكلمان الى نسخة من هذا الكتاب كانت موجودة في برلين قبل الحرب العالمية الثانية (١) وكذلك ماكر مايرهوف في خزانته (٢) وأيضا ما سجله السيوطي من أقواله في تلك المحاورة التي جرت بينه وبين نافع بن الأزرق (٣) ولا يعنينا في هذا المجال صحة نسبة الكتاب الى ابن عباس وهل هو الذي قام بتأليفه أم هو مرويات عنه فان الذي يهمنا هو أن نعلم متى ظهر هذا العلم .

وأعتقد أن ظهور هذا العلم مقرون بنزول الكتاب نفسه وتفسير الرسول والصحابة له فالتفسير لا يكون عادة الا لما غمض القول فيه وأخفيت معانيه وعلى هذا فيكون الرسول والصحابة والتابعون هم المدرسة الأولى للتفسير وعملها في هذا هو تفسير الغريب نظرا لما اتصف به العرب من أنهم أهل بلاغة وفصاحة فالتفسير هنا لا يأتي الا للغامض والبعيد عن الفهم وبهذا المعنى أخذ العلماء المسلمون وهم بهذا فانما يقصدونه الغرابة اللغوية

---

١ - تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ١٥/ ٣٣
٢ - كتالوج مكتبة " ماكر مايرهوف "
٣ - اتقان / السيوطي ، ج ١ ص ١٢١

وليست الغرابة البلاغيـــة .

ويبدو أن أول من خاض فيه على نطاق كبير هو ابن عباس كما يدل على ذلك النص الذى أورده السيوطى فى الاتقان (١) (وأولى ما يرجع اليه فى ذلك ما نسب عن ابن عباس وأصحابه لأنهم ممن ما يتوقعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس عن طريق أبى طلحة خاصة فانها من أصح الطرق عنه وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه مرتبا على السور قال ...) ثم أورد بعد ذلك مجموعة كبيرة من الألفاظ التى قام ابن عباس بتفسيرها وشرحها .

كذلك نجد أن المرة الأولى التى تقابلنا فيها كلمة الغريب فى الحديث الذى أخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال (اذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فـــان الشعر ديوان العرب) وعلى هذا فان الفترة التى ظهر فيها هذا المصطلح لا تتعدى النصف الأول من صدر الاسلام ومنه تناول العلماء المسلمون فى شرح الغامض والبعيد عن الفهـــم وأخذ بها أصحاب المعاجم العربية فى تحديد مدلول هذا المصطلح .

ومن الطبيعى أن يزداد هذا المدلول اتساعا نتيجة أمرين :

أولهما - اتساع دائرة الاسلام وشمول كل الجزيرة العربية بقباطها المتباينة اللهجات واللغات .

ثانيهما - الفتوح الاسلامية الكبيرة التى سادت أماكن لا يتكلم أهلها العربية ولا احتـــدى لهجاتها .

الانتشار بعيدة عن الأذهان بقدر لغة قريش أو بلغة دخيلة اذ يحتوى القرآن على بعـــض المعرب من اللغات المحيطة بالجزيرة العربية فمنها ما هو فارسى كالأباريق والاستبـــرق وحبشية كالأرائك والمشكاة وسريانية كالأسفار والربيين وعبرية كالقوم واليم - فقد كانت هنـــاك جاليات يهودية ونصرانية علاوة على ما يوجد لديهم من العبيد والحوارى وهذا أيضـــا

---

١ - اتقان/السيوطى ، ج ١ ص ١١٤

بخلاف التجارة برحلتيها الشتاء والصيف ـ كل هذه الأمور جعل الكثير من الألفاظ يدخل الى البيئة العربية ويشيع استخدامها عند البعض كما أن اتساع الاسلام وشموله الجزيرة العربية بأكملها قد ساعد بدون شك على وجود الغريب من اللغة ثم انتشار الفتوحات الاسلامية بعد ذلك شرقا وغربا وتكوين مجتمعات جديدة لا تملك من العربية ذلك الحس اللغوى الدقيق ـ وظهور طبقة المولدين كل هذا أدى الى اتساع هذا المصطلح فاللغة فى تطورها وسيرها مع الزمن قد يطرأ على ألفاظها من الاستعمال والاهمال ما جعل بعض ألفاظ العصر النبوى يلوح لقلة استعماله وكأنه غريب وهذا راجع بلا شك الى تغير الحس اللغوى وتطور أساليب البلاغة .

قد حظى هذا المصطلح بقدر كبير من جهود وعناية العلماء به وأصبح من أوائل العلوم التى وجه اليها العلماء همهم . وأرى أن عملية جمع اللغة وتحديد القبائل التى يؤخذ منها والشعراء الذين يستشهد بشعرهم له صلة كبيرة بهذا العلم فتشدد العلماء فى عدم أخذهم الا للفصيح واقتصارهم فى الجمع على المفردات الصعبة المعانى كان خدمة كبيرة لهذا الفرع من الدراسات اللغوية .

واذا ما حاولنا استقصاء كتب هذا العلم فسنجدها كثيرة جدا حسب رأى السيوطى (١) (النوع السادس والثلاثون فى معرفة غريبه أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد ...) ولا يعنينا هنا استقصاء ما ألف فى الغريب فقد فقدت معظم تلك الكتب الأولى التى تناولت هذا العلم فى القرن الأول وما وصل الينا لا يمثل هذا العلم الا فى مرحلة تطوره وليس فى نشأته ولكن الذى يهمنا فى هذا المجال هو بيان تطور المناهج فى هذا الفرع حتى القرن الخامس وهو القرن الذى عاش فيه الراغب الأصفهانى حتى نستطيع ان نوضح قيمة المفردات بين أقرانه من الكتب التى ألفت فى هذا المجال .

---

١ ـ الاتقان/السيوطى ،ج ١ ص ١١٥

فاذا أخذنا ما عزى الى ابن عباس بصرف النظر عما اذا كان هو مؤلف هذا الكتاب أم لا وان كنا نميل الى عدم الأخذ بهذا لأنه في هذه الفترة التي عاشها ابن عباس لم تكن فترة يسمح فيها بالتأليف وذلك لقربها من عهد الرسول الذي منع كتابة أي كتاب أو حديث سوى القرآن ومن الطبيعي أن يلتزم ابن عباس القريب من الرسول نسبا وعهدا بهذا المبدأ كما أنه لم تصلنا أية إخبار عن قيام أي فرد خلال هذه الفترة حيث أن كل الجهود قد وجهت للحفاظ على الكتاب الكريم مما حدا بهم حتى الى عدم تدوين الحديث الشريف بأغلب الظن أن هذا الكتاب هو مرويات عنه جمع بعد ذلك ونسب اليه كما اهتم بالنسبة الى كتاب نهج البلاغة المنسوب الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فمن هذه المرويات عن ابن عباس نستطيع أن نتبين المنهج الأول للغريب فنرى لنرى أن اتجاهه فيه يتمثل في شرح تلك الكلمات الغريبة سواء أكانت مهجورة أو مستعملة في اللهجة من اللهجات يدلنا على هذا قوله بعدم معرفته كلمة فاطر الا عندما احتكم اليه الاعرابيان بموضوع البئر (١) ،فاذا ما أخذنا بهذه الناحية من التجاه الى لغة القبائل الأخرى مع ما عرفنا عنه من تردده على المجتمعات اليهودية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت ومخالطته لهم والمامه بلغاتهم ومع تلك المحاورة التي أوردها السيوطي في الاتقان بينه وبين نافع بن الأزرق للاستدلال على معاني الكلمات في الشعر العربي فاننا نرى أن منهجه هو شرح تلك الكلمات باستخدام معرفته للغات واللهجات الأخرى مع الاستشهاد بالشعر العربي لتوضيح المعنى وهو توضيح بسياق الكلمة وموقعها .

واذا ما حاولنا تتبع تطور منهج العلماء المسلمين في الغريب فاننا لا نجد بعد مرويات ابن عباس هذه التي استخلصنا منها هذا المنهج سوى كتاب غريب القرآن لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) وذلك أن جميع تلك الكتب التي تناولت الغريب وذكرها المؤرخون أمثال ياقوت (٢) قد ضاعت ولم تصل الينا وعليه فانه من غريب ابن قتيبة نستطيع أن نتبين التطور.

---

١ - الاتقان/السيوطي ،ج ١ ص ١١٥

٢ - معجم الأدباء/ياقوت ١٠٨/١

التطور الذى حدث واتجاه العلماء فيه وذلك أن هناك أمورا كثيرة قد غايرت ما كانت عليه منها من ناحية البيئة والجنس والثقافة فلم يعد القرآن يدرس فى الصحراء كما كان على عهد الرسول والصحابة ولم يوقف تناوله على العرب بل تناوله العرب والعجم علاوة على أن فى هذه الفترة كانت الثقافة اليونانية والفارسية قد أرست أصولها داخل الثقافة العربية ولذا فان نظرتنا الى غريب ابن قتيبة تختلف عن نظرتنا لغريب ابن عباس .

أما عن منهج ابن قتيبة فى غريبه فانه قد قسم بحثه الى كتابين الأول هو غريب القرآن والثانى هو تأويل مشكله .

أما منهجه فى الغريب فقد بناه على أساس من الاختصار اللغوى عن الحشو بالنحو والحديث والأسانيد وتفسير السلف كما جاء فى مقدمته ،وقد بدأ الكتاب بذكر الأسماء الحسنى وصفات الله وتأويلها واشتقاقها ثم بالألفاظ التى كثر ترادها فى الكتاب ثم تفسير الغريب - وكما جاء بمقدمته من أنه استنبط كتابه هذا من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة ولم يخرج عن مذهبهم فقد جاء منهجه فيه خليطا من منهجى كتب اللغة وكتب التفسير . ففى مواضع كثيرة كان يضم الاثنين معا فبينما يفسر الألفاظ لغويا ويستشهد عليها بالأشعار والأحاديث وأقوال العرب ويبين وزنها أحيانا يفسرها قرآنيا فيبين من السور المدنى والمكى وكثير من أقوال المفسرين .

وقد قام ابن مطرف الكنانى بجمع كتابى ابن قتيبة فى كتاب واحد سماه القرطين حاول فيه أن يشبع الشكل مع الغريب كل فى بابه الا أنه فى منهجه هذا قد أضاع الكثير من أقوال ابن قتيبة التى اختصرها فى عملية الضم وقد نهج ابن مطرف فى كتابه على نظام الصحف وترتيب السور وفرق بين الغريب والمشكل بوضع حرف "ع" للغريب و "م" للمشكل أما الكتاب الثالث الذى نستطيع فيه تلمس مناهج الغريب ..... فهو كتاب السجستانى الذى قيل أنه ألفه خمس عشرة سنة (١) وكان يقرأه على شيخه ابى بكر بن

---

١ - نزهة

الانهارى - ويختلف منهج السجستانى فى كتابه هذا عن سبقوه فالكتاب بدون مقدمة يشرح فيها أهدافه من تأليفه ومنهجه فيه بل كان الترتيب لديه وفقا للحروف الأبجدية فكان يقسم الحرف الواحد الى ثلاثة أبواب فيقدم المفتوح ثم المضموم ثم المكسور ولا يعتبر الحرف الثانى وما بعده فيورد الألفاظ المبدوءة بالحرف الواحد مختلطة فى غير نظام أما عن منهجه ففيه فقد كان يشرح الألفاظ لغويا ويفسرها تفسيرا سريعا مختصرا ولم يستشهد فيه بأسماء العلماء الذين أخذ منهم أو نقل عنهم .

مقارنة بين صنيع الراغب وما صنعه غيره :

بعد استعراضنا لمناهج الغريب ممثلة فيما روى عن ابن عباس ثم كتاب ابن قتيبة وكتاب السجستاني ومع ما درسناه في الباب السابق عن منهج الراغب في غريبه فانه يظهر لنا جليا تلك الفروق الواضحة بين كل واحد من هؤلاء .

ومما لا شك فيه أن المرجع الأول لهذه الفروق أن كل واحد من هؤلاء يمثل مرحلة من المراحل ويعكس أيضا سمات عصره . فالغريب كما رأينا عند ابن عباس وكلما أورده السيوطي لم يتعد معاني كلمات أو الدلالة على أصل هذه الكلمات فكان التجاء ابن عباس الى اللهجات العربية والشعر العربي يلتمس فيهما أصول هذه المعاني وهو بهذا فانه يجابه احتياجات عصره في القليل الذي يسأل فيه .

وبعد ابن عباس فان هذا المنهج الذي قام بوضعه لم يكن ليجابه احتياجات ما تلا عصره من اتساع الدولة العربية واعتناق أجناس وشعوب أخرى للدين الاسلامي فكان هذا المنهج الذي رأيناه عند ابن قتيبة وهو منهج يتسم بالشمول ونقصد بالشمول هنا القرآن كله وليس ما خاض فيه ابن عباس فقط وهو بهذا أيضا يعبر عن حاجة عصره هو الآخر ومنهج ابن قتيبة هذا في الواقع ليس محددا السمات لأنه خليط من اللغة والتفسير والمرويات وكذلك تقسيمه الكتاب الى كتابين أحدهما للمشكل والآخر للغريب وفي ترتيب السور .

أما عن كتاب السجستاني فهو ما نستطيع أن نعده أولى المعاجم فيه ونحن بهذا نرى أن هذه المرحلة هي أهم مراحل الغريب التي تطور عنها كتاب الراغب فيما بعد لأنها تمثل ظهور أول معجم قرآني خاص بلغة القرآن ومعانيه - وقد جاء هذا الكتاب أقرب الى المختصر منه الى كتاب فلم يتوسع مؤلفه في شئ سواء في استقصاء المعاني اللغوية للفظة والاستشهاد عليها بالشعر أو الحديث .

واذا ما قارنا هذه الكتب ومناهجها بكتاب الراغب ومنهجه فيه لرأينا مرقا كبيرا من

الناحيتين : ناحية المادة وناحية الترتيب

فمن ناحية المادة فهي عند الراغب استقصاء معاني اللفظة في القرآن مع تحديد مدلول ملفوظ في استعمالاته المختلفة وكذلك الاشارة الى عجمتها ان كانت الكلمة أعجمية أو معربة أو دخيلة .

ومن ناحية الترتيب فكان ترتيبه سهلا غير معقد فهو الترتيب الألفبائي الذي تسير عليه معظم المعاجم العالمية الحديثة .

ومن هذا نرى أن كتاب المفردات في غريب القرآن أشمل وأكمل وأنظم هذه الكتب التي وضعت للغريب ويحق ما قاله عليه الدكتور حسين نصار أنه قمة من القمم وما قاله أستاذنا المرحوم أمين الخولي أنه نواة تخجل من بعدها الأجيال نظرا لعدم وجود من يعنى بها أو يكملها أو على الأقل يضع على غرارها . (١)

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية " مادة تفسير "

الفصـــل الثانـــى

مقارنة بين اللغة العربية والعبريـــة :

قبل أن نشرع فى بيان أهم جوانب حركة المعاجم العبرية فانه لابد لنا أولا مـــن القيام بالقاء نظرة عامة على الروابط بين اللغتين وما بينهما من قرابة وتشابه فقد أصبـــح يعول الآن على الدراسات المقارنة فى الكشف وتوضيح ما غمض فى اللغات وبالذات فـــى تحديد أصولها وجذورها . وهو ما نحتاجه لعربيتنا نظرا لفقدان معظم آثار العصـــر الجاهلى وما قبله - وترجع أهمية اللغتين الى الآتى :

١ - أن كلا من اللغتين قد نزل بهما نص مقدس له مكانته الروحية بين أهله يتناولونه كـــل يوم فى حياتهم ويعدونه مصدرا للأحكام والتشريع .

٢ - أن كلا من اللغتين قد عاشتا متجاورتين زمنا طويلا .

٣ - أن كلا من اللغتين تنتميان لعائلة لغوية واحدة وهى اللغة السامية الأم .

٤ - أن هناك تشابها كبيرا بين اللغتين سواء فى المفردات اللغوية أو

٥ - أن نهضة اللغة العبرية قد قامت على أكتاف علماء عاشوا وسط أمتنا العربية كما سنـــرى وأخذوا مناهج علمائنا اللغوية وقاموا بتطبيقها على لغتهم .

وتفصيلا لهذه النقاط فان أول الملاحظ أن اللغتين قد نزلا بهما نص مقدس فالتـــوراة وقد نزلت بالعبرية والقرآن وقد نزل بالعربية - وصاحب نزول الرسالتين حركات لغوية ودينية قوية من تجميع وشرح ومحافظة على النص الدينى ولو وضعنا هذه النقطة تحت الدراســـة المقارنة لاتضح لنا هذا الشبه الكبير بين الحركتين على اتساع فارق الزمن بينهما وان كـــان لهذا تعليل عندنا فان مرجعه الى العقلية السامية للعرب واليهود على السواء التى كانـــت تعطى للنصوص الدينية اهتماما خاصا وعناية زائدة عن غيره من النصوص .

أما عن انتماء اللغتين الى عائلة لغوية واحدة فان اللغتين هما أهم اللغات اللغة السامية الأم وأيضا هما الباقيتان للآن منها وفى كل منهما تتضح خصائص تلك اللغة الأم - فمن ناحية مخارج الحروف فهى فى اللغة الأم (١) (الهمزة - والهاء والحاء والخاء والعين والياء والفاء)التى يظن بعض اللغويين أنها كانت أقحاريه مثل غرغ الذ ر ب - والدال - والذال والثاء والجيم التى يظنون أنها كانت غير معطشة كالجيم المصرية" والكاف واللام والميم والنون والراء والواو والياء والطاء والقاف والصاد " ويظن أنه بجانب الصاد البسيطة كان هناك صوتان آخران للصاد أحدهما تصاد والثانى قساد والسين والشين " ويظن أنه كان هناك حرف آخر نطقه بين السين والشين وأخيرا حرف الزاى وهذه الأبجدية يرى الدكتور حسن ظاظا (٢)أننا لو عرضنا على هذه الأصوات مخرجة مخارج الحروف الموجودة فى كل لغة من اللغات السامية لوجدنا أن أوفى هذه الأبجديات وأشدها انطباقا على مخارج السامعين الأول هو أبجدية العربية الفصحى التى تحتوى على كل ما جاء بالأبجدية الأم ما عدا السين التى بين الصادين الفرعيتين وقد حدث فى لغة العربى نطقان جديدان هما الضاد والظاء .

كذلك فاننا نجد أن معظم الأبجدية العبرية موجودة فى هذه الأبجدية الأم وهى (أ ب ج د هـ و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت) .

ويحدد الدكتور حسن ظاظا أهم صفات اللغة الأم بالآتى : (٣)

١ - انطلاق المشتقات من المادة الثلاثية المجردة الى المزيدات بحروف الزيادة .

٢ - أنها فى تصريف الأفعال لا تتضمن الا صيغتين اثنتين أحدهما تدل على تمام وقوع الحدث وانقضائه وانقطاعه وهى التى تسمى بصيغة الفعل الماضى والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه وهى التى تسمى المضارع .

---

١ - الساميون ولغتهم/د .حسن ظاظا ص ١٩

٢ - نفس المصدر

٣ - نفس المصدر

٣ - كثرة الصيغ الفعلية التى تدل على معانى أخرى ملابسة للحدث " وهى الجزم والتوكيد "

٤ - وجود الجملة الاسمية فيها أى التى تقوم على مبتدأ وخبر دون رابطة لفظية بينهما .

٥ - شيوع اشتقاق الأسماء من الأفعال فيها والعكس .

فنحن اذا ما نظرنا الى هذه الصفات لوجدناها كاملة فى اللغتين وعلى هذا تعددت أوجه الشبه بين الاثنتين فى نواحى كثيرة مثل الأفعال والضمائر والتراكيب والمفردات .

الى جمع ما تشابه من المفردات مثل الأستاذ مراد فرج فى كتابه ملتقى اللغتين العبرية والعربية حيث كان يورد اللفظة المشتركة بين الاثنين لفظا ومعنى ومن أمثلة ما ورد بكتابه كلامه عن مادة "حج" اذ يقول (الحج القصد - حج الينا فلان قدم وتصور استعماله فى القصد الى مكة للنسك والحج الى البيت خاصة تقول حج يحج بالضم حجا . الماضى العبرى فيه "حجج" فتحان ثانيهما مدود . وقد يخفف فتقول حج بفتح المدود . والمضارع يحفغ فتحان أولهما مدود فضم مال مدود . ووقد يخفف فتقول "يحغ" فتح فضم فعال مدود . خروج ٢٣ - ١٤ والنظام هو فرض الحج الى بيت المقدس ثلاث مرات فى السنة وهو من حج وحجا وحجّ فى اللغتين بمعنى الطواف حول الشيح فحول البيت بفرح وشرور وفى سفر الخروج ٥ - ١ "يحجو" فتح فضمان أولهما مدود والثانى مشدد أى يحجوا والألف العربية بإزاء للاشباع وهو على وجه الطلب والأمر من موسى وهارون الى فرعون أن يرسل بنى اسرائيل فيحج لله "فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم "فالنسخة العربية قالت ليعيدوا . واسم الفاعل أى الحاج هو عبريا بلا ادغام "حوغغ" ضم فكسر مدود صموئيل

ويشربون ويحجون والكلام على الطائفة أعداء داود يفاجئهم وينكل بهم وهم على هذه الحال ولكن المعنى هنا بمعنى حجّ يحجا أى فرح بفرح أى أنهم كانوا آكلين وشاربين وحاجين

أى فرحين مغتبطين طربين بما استولوا عليه من الغنائم فى الحرب كما هو باقى النظام وقد ضربهم داوود (أفناهم وهزمهم وغنم ما بأيديهم. فحجج عبريا يدخل عربيا فى مثله وفى حجه والفرح والطرب هنا نوع من أصل الفعل فهو طواف ورقص وترنح والنسخة العربية قالت يأكلون ويشربون ويرقصون . ورقص هو عبريا رقد ومنه عربيا الرقدان الطفر تشاطلا وركض منه كرقص وركد والحج اسم الفعل "ولله على الناس حج البيت "هو عبريا حغ بفتح المدود وأطلق على العيد .

ولا بدع فالأصل فى الفعل حاج يحوج فى اللغتين قصد ولجئ أى الى الله خروج ٣٢/٥ والنظام حج الله غدا . وسفر القضاة ٢١/١٩ والخروج ٢٣/١٤ و ١٦ والجمع حجيم فتح فكسر شدود مدود - ملاخى ٢/٣ وحجى (حجى) فتح فكسر شدد مدود هو ابن جاد بن يعقوب - تكوين ٤٦/١٦ وحجاى "حجى "فتحان ثانيهما شدد مدود فسكون من الأنبياء (انظر سفر حجى وانظر حوج وحجا وحجئ) .

فالاستاذ مراد بهذا الاتجاه الى دراسة الارتباطات والظواهر اللغوية والحياة الاجتماعية المتشابهة بين العرب واليهود وهو بهذا أيضا فانه يرجع الى الأصول الأولى التى تشعبت بعد ذلك الى لهجات ولغات عديدة وغريب من محاولته هذه ذهب أيضا الأب مرمرجى الدومنكى (١) حيث قام بدراسة المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية فجاء منهجه قريبا من منهج الأستاذ مراد وخاصة فى ارجاعه أصل الكلمة الى أصل مشترك بين الاثنين ويبدو أن ارجاع الأب مرمرجى الدومنكى الكلمات العربية والعبرية الى أصل مادى مشترك يقوم به الجميع هو الأساس الذى اعتمد عليه فى هذا التشابه بين المفردات ولتقارب نطاق الصوتى ويبدو هذا واضحا فى كلامه عن كلمة حج وصلاة فهو يرجع مادة حج الى اسم صوت طبيعى يخرج عند الزائر وخاصة الزائر السامى الشرقى الذى يغلب كثرة عناء واجهاد نفس يسمع معه بضرورة الطبيعة اصم صوت مثل "حك "ويعد الأب

---

١ -

ومجى هذا أول تطور لمعانى كلمة الحج (٢) وكذلك فى كلامه عن مادة صلاة حيث يرجعهـا الى أصلها الأول وهو "صل" بمعنى حرارة (٢) ثم تطورها بعد ذلك الى استعمالهـا الحالى وأن اصلها سريانى أخذها العرب .

أما عن النهضة اللغوية باللغة العبرية فقد ازدهرت وترعرعت فى مجتمعنا العربى حيث عومل اليهود على أنهم أهل كتاب يعيشون فى ذمة المسلمين فتركت لهم الحرية كاملة فـى الدين والثقافة (٣) ومن هنا ظهر سعديا الفيومى المتوفى سنة ٩٤٥ م الذى تلقى دراسته الأولى فى الشريعة اليهودية واللغة العبرية فى مصر ثم رحل الى فلسطين حيث تتلمذ على أبوكثير يحيى ابن زكريا الطبرى ثم عاد الى بغداد حيث درس النحو العربى واتصل بالحركة اللغوية الهائلة على أيام العباسيين كما درس المذاهب الاسلامية وخاصة مذهب المعتزلـة الذى ألف على غراره كتاب الامانات والاعتقادات .

كما قام فى هذا الوقت بترجمة الكتاب المقدس الى العربية وألف كتابا آخر ضخما اسمة كتـاب اللغة مقتفيا به آثار اللغويين العرب . كذلك من الآثار التى تركها سعديا كتاب الشعـر العبرانى الذى اقتفى فيه أوزان وبحور الشعر العربى ولعل من أهم أعمال سعديا كتـاب التفسير العبرانيين لفظة المفردة وهى ألفاظ من غريب الكتاب المقدس وشكلة لجأ سعديـا الى طريق المقارنة اللغوية فى هذه الالفاظ فبحث عنها بلفظها باللغة الآرامية والعربية .

ومن العلماء اليهود الذين عاشوا فى الدولة العربية وكان لهم نتاجا ضخما داوود بن مروان المقمص الذى ألف كتابا اسمه عشرون مقالة حاول فيه ربط الفكر اليهودى بالحضـارة الاسلامية . وأبوسليمان داوود بن ابراهيم الفاسى الذى ألف معجما كبيرا للعبرية التـوراة شروحا بالعربية اسمة الأجرون أو كتاب جامع الألفاظ . ومن اليهود الذين سايروا العـرب فى دراسة اللغة يهود ابن قريش ومناحم بن صروق وابن حيوج ود ونش بن لبرط وأبو الوليـد

---

١ - العبرية - الدومانكى
٢ - " " ص٤
٣ - " " ص١١

مروان ابن جناح أكبر علماء اليهود الذى ألف كتاب للأصول كما ألف كتاب اللمع .

ولقد كان للتشابه الفكرى أيضا نصيب كبير فى استنادنا على قياسنا لتلك المقارنة بين ما صنعه الراغب الأصفهانى وما صنعه اليهود غم تباعد الزمن بين التفكيرين فقد نشأ عند اليهود اختلافا كبيرا حول معانى التوراة ونرى هذا واضحا فيما وضعه اكليمنر السكندرى فى القرن الثانى الميلادى حين وضع قواعد ينبغى أن يلتزمها من أراد تفسير الكتاب المقدس (١) وتتلخص هذه القوانين فى أنه يجب أن يفهم من كتاب المقدس معنى مجازى وأن لكل شرائع موسى أربعة معانى وأن لكل منها معنى عن المستقبل وأنه يجب أن نقدر معنى الكتاب المقدس الظاهر يقودنا الى الايمان البسيط أما المجازى فيقودنا الى أسمى درجات الايمان .

ومن هنا نرى تشابها كبيرا بين قواعد اكليمنر وما أخذ به المتصوفة بعد ذلك .

كذلك كانت لفكرة الوحى مع فكرة اله خفى أثرها فى توجيه التفسير وجهة خاصة فلقد أخذ فيلو الفيلسوف اليهودى بفكرة الوحى مع اله خفى ووجد أنها تحتاج الى البحث عن معنى خفى وراء المعانى الطبيعية .

وفى هذا تتشابه معه الفرق الباطنية التى كانت ترى أن لكل آية ظهرا وبطنا وكذلك مع بعض الفرق الشيعية التى كانت ترى أن لكل آية معنى جليا وآخر خفيا .

وهكذا نرى أنه قد قدر للغة العبرية أن تكون لها نهضة بجانب اللغة العربية بعد هذا التلطم الذى عاشت فيه قرونا طويلة واضطهدت متوقعة داخل مجتمعات مغلقة محاولة جاهدة الحفاظ على ما بقى من تراث لديها والواقع فان اللغة العبرية تمتاز بآثارها الكثيرة المبينة لمراحلها المختلفة فقد كانت فكرة المجتمعات المغلقة "الجيتو" التى ابتكروها هى صمام الأمان أمام محاولات القضاء عليها أكثر من مرة فمن السبى البابلى فى العراق الى

---

١ - دائرة المعارف البستانى مجلد ٦ ص ١٧٣ ، نقلا عن دائرة المعارف العربية .

الاقامة بالصحراء الشرقية لمصر - تلك الرقعة الفسيحة من الأرض - تنقل اليهود فيها وفى كل مرة كانوا يتركون من الآثار ما يدل على وجودهم وقد ساعد على هذا أن التوراة قد نزلت على مدى طويل من الزمن قارب الألف عام وكتب فى أماكن مختلفة على عكس القرآن الكريم الذى أنزل فى مدة قصيرة لم تتعد العشرين عاما ونزل فى بيئة واحدة واذا ما نظرنا الى اللغة العبرية على أنها كانت تحافظ على نفسها بالتقوقع داخل مجتمعات مغلقة فان اللغة العربية على عكس منها انتشرت شرقا وغربا بل فى بعض الأماكن زادت فى مجتمعاتها .

ومن الملاحظ أن اللغة العبرية لم يتح لها حظ كبير من الدراسة وتقعيد قواعدها منذ هدم الهيكل الا فى عصر الدولة العربية التى وجدوا فيها تسامحا لم يجدوه من قبل فى أى أمة من الأمم التى عاشوا فيها يدلنا على هذا اختيار سعديا الفيومى حاخاما أكبر وزعيما للاكاديمية اليهودية فى بلدة صور القريبة من بغداد فى العصر العباسى .

الفصـــل الثالـــث

المعاجم العبريـــة :

بعد تسجيل الكتاب المقدس بحروفه فقط وحيث أن اللغة العبرية تعتمد على السواكن دون الحركات بقصد تيسير النظر والقراءة الصحيحة والكتابة وعلى هذا فقد ظهرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة الماسوريين أى رواة النص المقدس برسمه ونطقه وكل هذا النص المروى رواية شرعية صحيحة يسمى الماسورت (١) Massorath וכתיב וקרי وكانوا يميزون فيه الألفاظ المكتوبة بشكل والتى تقرأ بشكل آخر أى المقروء والمكتوب كما كانوا فى بعض الأحيان يبينون ما يكتب بحذف حرفى المد الواو والياء ويسمونه חסר أى ناقصة وما يكتب باثباتهما ويسمونه מלא أى الملآن.

وحوالى أواخر القرن التاسع الميلادى أى بعد ظهور العلوم الانسانية بما فيها كتابة المصاحف وتنقيتها وضبطها بالحركات ظهرت عند اليهود مدرسة تسمى (דקדוק) المنقطين وهؤلاء كانت وثيقتهم ضبط النصوص بالحركات الصحيحة والفصل بين الآيات كعلامات الفصل . ثم انقسمت المدرسة الى شعبتين : (٢)

الأولى - وتوجد فى العراق وتدعى الشرقية أو البابلية وتسمى بالآرامى נקוד בבלי

الثانية - وتسمى נקוד טבריני (الطبرانية)

وكانت الأولى تعبر عن الحركات بالنقط أما الثانية فترسمها بالرسم الذى اتبع ويتبع حتى الآن.

ومنذ القرن العاشر الميلادى بدأ اليهود يهتمون بتفسير الكتاب المقدس بطريقة منهجية تقليدا للمسلمين وأهم من ذلك أنه وجد عندهم كتاب فى التصوف والروحانيات اسمه كتاب الخليقة باللغة العبرية اسمه فيها ספר יצירה وهو ينسب فى مقدمته الى سيدنا

---

١ - حوالى ٥٠٠ - ١٢٠٠ م

٢ - د. حسنه ظاظا
مرداخاى هيلر - رسالة ماجستير
بالسوربون ١٩٥٨

ابراهيم وهى نسبة منتحلة بدون شك . كما نسبه بعض الباحثين اليهود الى أحد شاهير أحبارهم وهو الربى عقيبة بن يوسف(١) أحد واضعى التلمود وأشهر شخصياته ونظرا لأن هذا الكتاب يبحث فى أسرار الحروف وعلاقتها بالعلك والتنجيم والحساب الرياضى فقد استدعى الأمر من شراحه أن يبحثوا فى الطبيعة اللغوية لنطق الحرف ومن أشهر هذه الشروح شرح سعديا الفيومى الذى وضعه على هذا الكتاب اللغة العربية ويمتاز هذا الشرح بأن فيه ملاحظات قيمة من الناحية اللغوية والصوتية وقد أوجب اليهود على المعلم أن يلقن تلاميذه فى ظل العصر الاسلامى معلومات أساسية ذكرها أحد علمائهم وهو يوسف بن يهوذا من برشلونة بالأندلس فى كتاب له عنوانه طب النفس عقد فيه فصلا سماه أدب المعلم والمتعلم يقول فيه (سمى يقرئهم מקרא ואגדה ומשנה أى التوراة وكتب الأنبياء وكتب الحكمة التى يتكون منها العهد القديم - التناخ) بضبطها وتلحينها بان يخرجوا (ال) טעמים (أى اشارات الفصل والوصل أى ما هى عليه) . ثم دعم وجهة نظره بنص شرعى من التلمود واستمر بعده فقال (ويعلمهم ما منها מקרא ، وما منها תורה ، وما منها משנה ، أى التى تأتى النبرة فى مقاطعها الأول ، وما منها גמרא وسائر ما ينبغى أن يعلم وهذا يكون بتعليمهم كتب مثل מדרש ספרא وكتاب ספרי وغير ذلك من كتبها) .

واستمر ذلك الى أن ظهر أستاذان كبيران فى القراءات هما بن آشر وبن نفتلى اللذين عاشا فى القرن العاشر الميلادى أحدهما فى العراق والآخر فى اقليم طبرية فى الأغلب .

وابتداء من أوائل القرن العاشر وبتأثير الفكر العربى ظهر عند اليهود علم قواعد اللغة פילפול

وبالرغم من أن اليهود فى ظل الصهيونية المعاصرة للإرسيون الاعتراف بجهود طائفة

---

١ - حوالى ٥٠ - ١٣٠ م .

القرائين الا أنه لايمكن انكار جهود هؤلاء في هذا الميدان ومن أشهرهم في القرن العاشر أبوالفرج هارون المقدسي الذي ذكر أنه ألف ثمانية كتب في النحو والصرف واللغة كما كتب معجما عبريا سماه المشتمل وكما يبدو ترتيبه فيه على نظرية الثنائية وفي ما ذكره المستشرق اليهودي نيوباور . ومن القرائين أيضا أبويعقوب يوسف بن يحتوى الذي يظن أنه هو نفسه الذي سماه بعض المؤلفين أبويعقوب يوسف بن نوح وكان معاصرا لسعديا الفيومي وألف بالعربية نحوا عبريا اسمه كتاب الدقدوق وألف تلميذه سعد شيران كتابا سماه كتاب اللغة(١)

وفي ميدان المعاجم نجد المدرسة القرائية تقدم لنا أبوسليمان داوود ابن ابراهيم الفاسي الذي توفي في أواسط القرن العاشر وقد ألف كتاب جامع الألفاظ أو الأجرون وهو معجم عبري عربي . ومما لاشك فيه أنه كان معاصرا لسعديا الفيومي فلكنه كان أصغر سنا من سعديا . وقد ذكر الفاسي اسم الفيومي في معجمه مرتين وبالرغم من أنه قرائي فانه في معرض اللغة يستشهد أحيانا بعلماء الشنا مع أن المذهب القرائي لايؤمن بهم وهو يسميهم الأوائل وهي نفس التسمية التي يستعملها يهود رابنيون مثل سعديا ومروان بن جناح بل انه يشير الى علماء التلمود أيضا تحت اسم الرابنون وفي بعض الأحيان يتحدث عنهم في ضمير الغائب فقط فيقول هم ويبدو من مقدمة معجمه انه يؤمن بشئ يشبه نظرية الاشتقاق الكبير عند ابن جني بل يزيد على ذلك بأن بعض الأصول في الاشتقاق ترتكز على حرف واحد وبعضها على اثنين وأحيانا على ثلاثة أو أربعة يقول في ذلك :

(الألفاظ العبرانيه تدور على حروف هي أمهات الألفاظ واسمها واعلم أن الأمهات على أربعة أقسام : أحدها أن تكون الكلمة دائرة على حرف واحد وكل لواحقها ترتفع والحرف ثابت مثل ו ך - ב ו - ג ו - ד ו - ה ו والثاني - هو أن تدور الكلمة على حرفين وترتفع اللواحق وتثبت وهي مثل ק ר א - ק ר ב - ק ר ג - ק ר ד - ק ר ה والثالث - هو ما يكون أصلها ثلاث حروف ولواحقها ترتفع وهي ثابتة مثل ק ר ב ת - ק ר ב ן - ק ר ב ה - ק ר ב ו

---

١ - د. صبحي قاقان

والرابع - فهى الذى أشبها أربع حروف وهى على ضربين إحدهما أربعة أحرف أصلية مثل

والثانى - أربعة مكررة مثل

ولم تزيد لغة العبرانى عن هذه الأربعة وعليها يبنى كل نطقهم من الأمر والنهى والآنف والمستأنف والفاعل والمفعول والاسم والمصدر والتذكير والتأنيث ما خلا أسماء الأشخاص التى هى غير متصرفة فانها قد تزيد على أربعة أحرف مثل :

واذا كان اليهود قد استطاعوا أن ينشأوا لأنفسهم علما لغوية خاصة بهم فيما يتصل بالصوتيات فقد كانت على جانب كبير من الدقة واذا كانت دراساتهم الخاصة بالصوتيات قد زودت بمصطلحات من صميم ابتكارهم فان الأمر يختلف جدا فيما يتصل بالنحو والصرف والمعاجم اذ أنهم كانوا عالة على العرب(١) ذلك أن علم المعاجم عندهم كان متخلفا وساذجا فقد بدأت ملاحظة الاشتقاق فيه مربطه بأفكار صوفية متعلقة بالحروف الأبجدية وصلة هذه الحروف بحساب الفلك وربما لاحظنا ذلك فى العبارة التى ذكرناها عن الفاسى عندما يتحدث عن الألفاظ العبرانية فيقول أنها تدور على أحرف ثم يكرر هذا خلال كل المقولة التى ذكرناها وأوضح من ذلك ما يوجد فى نحو صوفى عبرى اسمه وقد شرحه بالعبرية سعديا الفيومى معتنيا ببيان ارتباط الحروف بالأعداد وارتباط ذلك كله بالبروج والأفلاك وهيئة السماء وحركتها .

ومن أوائل من ربطوا الفكر اليهودى بالمناهج اللغوية سعديا الفيومى بالذات ويبدو أنه كان قد ألف معجما عبريا بنفس اسم الأحرون الذى سمى به داوود بن ابراهيم الفاسى معجما ويبدو أن هذا المعجم قد ضاع بعد موت سعديا بقليل وحيث أن اللغويين اليهود فى الاندلس الذين جاءوا بعده بقرن واحد كانوا يتحدثون سماعا فقط ويسمونه باسماء مختلفة فمناحم بن ساروق يذكره باسم شروح رب سعديا ويذكره رب موسى نزيل انحلتيرا باسم محبرت أى المؤلف أو الكشكول والى جانب هذا الكتاب المفقود ذكرت لسعديا فى

---

١ -

اللغة كتب اشهر من معجمه هذا اهمها كتاب اللغة الذى بقيت منه بضعة أوراق وظاهر أنه كان ضخما فى عدة مجلدات وكذلك كتاب الفصاحة واسمه بالعبرية ثم تفسير السبعين لفظة المفردة وهى ألفاظ من أغرب غريب الكتاب المقدس .

بعد ذلك تتأكد الحركة اليهودية فى المغرب والأندلس فى ظل الحكم العربى ومن أشهر علمائهم :

١ - دونش بن تميم الشغالفى المولود فى أواخر القرن التاسع الميلادى أو أوائل العاشر بالقيروان من أسرة يهودية عراقية الأصل نازحة من بغداد ويقول نيوباور أنه ألف معجما عبريا مقارنا باللغات الأخرى وهذا المعجم لا وجود له بين أيدينا .

٢ - يهودا بن قريش من تاهرت بالمغرب ويقال أنه كان معاصرا لسعديا وأنه ألف معجما ضخما أساسه الثنائية أى الأصول ذات الحرفين كما أنه من أكبر الدعاة الى الدراسة اللغوية المقارنة وله فى ذلك رسائل الى أهل مدينة فاس من اليهود يحثهم فيها على الاهتمام بدراسة لغات المشنا والتلمود واللغة السريانية والكلدانية والعربية والانتفاع بذلك فى كشف غوامض اللغة العبرية فى سنة ١٨٧٠ م .

٣ - مناحم بن سارق : ٩١٠ - ٩٧٠ م وقد حضر الى قرطبة بناء على دعوة الحبر اليهودى حسداى بن اسحق بن شبروت الذى كان وزيرا للخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث وقد أصبح مناحم كاتبه الخاص وشاعره ومؤدب أبنائه وقد ألف فى قرطبة معجما لألفاظ العهد القديم اسمه محبروت وقد كان متبعا فى ترتيبه الثنائية مثل يهودا بن قريش وهذا المعجم يمتاز بأنه عبرى خالص وغير مشروح للعربية ولذلك ذاع صيته وانتشر فى الأوساط اليهودية فى العصور الوسطى

المؤلفات الأخرى المشروحة بالعربية مقصورة على من يمتهم العربية من اليهود .

٤ - دونش بن لبرط ٩٢٠ - ٩١٠ م :

وقد اكتفى دونش بن لبرط بمهاجمة مناحم بن ساروق فى منهجه المتعصب ضد الاستعانة باللغة العربية وقد انتصرت مدرسة المقارنة هذه فظهر من رجالها أبوزكريا يحيى بن داوود الفاسى المعروف بحيوج ومسعونه أيضا القرطبى بعد هجرته الى هذه المدينة وقد عاد الى منهج المقارنة والاعتماد على اللغة العربية بطريقة أكثر منهجية وأرسخ قدما فى قواعد الصرف العربى وقد ألف من الكتب كتاب التنقيط الذى يبحث فيه فى قواعد توزيع الحركات على الألفاظ وكتاب الأفعال ذوات الحروف اللين وهو الأجوف وكتاب الأفعال ذوات المثلين وهو المضعف وكان هدفه من ذلك ارساء قواعد نظرية الثلاثية للاشتقاق التى يقول بها الصرفيون العرب واثبات أن الفعل الأجوف الذى يكتب بحرفين فى العبرية كقحام هو ثلاثى أيضا وكذلك المضعف .

وانطلاقا من هذا أخذ النحو العبرى صورته النهائية وكذلك المعجم على يد أبى الوليد مروان وهو مكون من جزأين الأول فى النحو والصرف وهو كتاب اللمع والثانى معجم لعبرية التوراة وهو كتاب الأصول المرتب على الحروف الأبجدية من أوائل الكلمات بعد تجريدها من الزوائد .

الفصـــــل الرابـــــع

مقارنة بين صنيع الراغب فى المفردات وبين العلماء اليهود :

فطن علماء اليهود الى فكرة المقارنة بين اللغتين العبرية والعربية وما بينهما ـــــن صلات وترابط ابتداء من القرن الخامس الهجرى وهى نفس الفترة التى عاش فيها الراغـــب وقد سبقهم العلماء العرب لهذه الفكرة قبل هذا بوقت طويل منذ أن بدأوا يفسرون الكتاب الكريم كما رأينا عند ابن عباس ثم تتابعت بعد ذلك الكتب التى قامت بشرح الدخيل والمعرب ولكن هناك أمرا يجب الاشارة اليه وهو أن العلماء العرب فى بحثهم هذا كان اتجاههـــم الأكبر الى اللغة الفارسية أكثر من العبرية والسريانية بينما كان اتجاه علماء اليهود الـــى اللغة العربية والآرامية . ويبدو أن مرجع هذا هو طبيعة المجتمع العربى فى ذلك الوقـــت حيث كانت اللغة اليهودية لغة شبه ميتة لا تتناول الا فى المعابد وبين عدد محدود مـــن الناس . وقد ساعدهم على هذا بدون شك اتقانهم اللغة العربية وتضلعهم فى ثقافتهـــا كذلك وجزرهم فى البيئات الثقافية للمجتمع العربى .

فمن الذين عاشوا فى البيئات الثقافية للأمة العربية سعديا الفيومى الذى عاش فـــى بغداد وبلغ منصب الحاخام الأكبر لليهود وألف بالشعر العبرانى على الأوزان العربيـــة واعتمد فى تفسيره للكتاب المقدس على ما أثر به ووافق هواه من لغة العرب التى كـــان يجيدها حيث كان كاتبا للقصر العباسى كذلك اللغوى المغربى أبوسليمان بن داوود بـــن ابراهيم الفاسى القرائى الذى ألف الأجرون ومروان بن جناح القرطبى الذى عاش فى قرطبـة وألف كتابا فى النحو اقتفى فيه آثار نحاة البصرة وسماه كتاب اللمع . وأمثال هؤلاء كثيرون من أمثال حيوج ويهودا بن قريش وطاهم بن صاروق ود ونش بن لبرط والحريزى .

عاش كل هؤلاء وسط أمتنا العربية وتثقفوا بثقافتها فجاءت أعمالهم العبرية على طراز مـــا

درسوه من الأعمال العربية وهذا هو أهم وجه فى تلك المقارنة التى نعقدها فى هذا الباب بين ما صنع الراغب وما صنعوه .

فوجه المقارنة من ناحية الراغب أنه أدرك أن هناك غريب لا تفسير له فى العربية وانما تفسيره فى لغته المأخوذة منه ولذا كان يشير فى كثير من الأحيان الى عجمة اللفظة أو الى أصلها مثل مادة "مسح" حيث يقول فيها (. . . وقيل سمى عيسى عليه السلام مسيحا لكونه ماسحا فى الأرض أى ذاهبا فيه وذلك أنه كان فى زمانه قوم يسمون السائحين والسياحين لسيرهم فى الأرض وقيل سمى به لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ وقيل سمى بذلك لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن وقال بعضهم انما كان ممسوحا بالعبرانية مقرب تمسيل المسيح وكذلك موسى كان موشى)ومادة "ربانى" التى أشار الى أنها سريانية ومادة "حلت" و"طالوط" .

كذلك كان الوضع بالنسبة لليهود وخاصة فى القرن الخامس الهجرى حيث كانوا أمام لغة شبه ميتة يفصل بينهم وبين آخر نهضة لها قرون طويلة من عصر العظمة والاضمحلال لذا كان اعتمادهم على اللغة العربية ومناغيبها فى تمام صحة المفهوم .

وتتمثل أهم المناهج اللغوية للغة العبرية فى منهج سعديا الفيومى فى تفسيره للمبهمين لفظة المفردة وهى ألفاظ من غريب كتاب المقدس ومشكلة لم تستعمل كل لفظة منها الا مرة واحدة مما جعل من المستحيل معرفة معناها عن طريق تتبع الاستعمال كما هو النهج فى تحديد معانى ألفاظ اللغات الميتة أو الألفاظ الغريبة فى سائر اللغات وعلى هذا ومبنى لغوى دقيق

اللغة الآرامية والعربية ويبدو أن سعديا لم يراع الدقة فى ترجمته ونقولاته فدخل فى لغته كثير من العامى والدخيل ويظهر هذا من استعماله الفعل "شال" بمعنى "حمل" (لاوى ٩/٢)والفعل "أدلج" الذى عند العرب "سافر ليلا" فى معنى "سافر نهارا"

(تكوين ٣/٣٢ - خروج ٦/٣٢) .

ومن أهم ما يبرز تسلط الوعى اللغوى العربى عنده ترجمته "النصب" أى النحجـــارة المنصوبة تكريما أو تقديسا أو تخليدا فيستعمل سعديا كلمة "الدكاك" . وفى نظر الدكتور حسن ظاظا جمع كلمة "دكة" التى يستعملها عامة العراق وخاصة عند الشيعة النصبـــب الخشبى الذى يقام فى أيام عاشوراء لتقرأ من فوقه أو يمثل عليه أحيانا قصة استشهاد الحسين بن على رضى الله عنهما .

كذلك يتضح تأثير المناهج العربية على نهضة اللغة العبرية فى منهج مروان بن جناح شيخ نحاة اليهود الذى أدرك تلك الصلة المتينة بين اللغة العبرية وباقى العائلـــــة السامية وقد ألف باللغة العبرية كتابا فى النحو العبرى سماه كتاب "اللمع" أما عن منهجـه فيه فشرحه فى المقدمة حيث يقول (وما لم أجد عليه شاهدا فى المقرا (١) استشهدت عليـــه بما حضرنى من المشنة والتلمود (٢) واللغة السريانية وجميع ذلك من استعمالات العبرانيين . مختفيا فى ذلك أثر رأى الشيبة (٣) الفيومى رحمه الله فى استشهاده على "السبعين لفظة المفردة" من المشنة والتلمود وأثر غيره من الجاونيم (٤) أيضا كالسيد شريرا والسيد هاى رضـــى الله عنهما وأثر غيرهما أيضا وما لم أجد عليه شاهدا مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه مـــن اللسان العربى لم أنكل من الاستشهاد بواضحه ولم أتخرج عن الاستدلال بلائحه كمـــا يتحرج عن ذلك من ضعف علمه وقل تمييزه من أهل زماننا لا سيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين من قلة التحصيل بحقائق الأمور وقد رأيت رأى الشيبة سعديا نصر اللـــه وجهه يتوكأ على مثل ذلك فى كثير من تراجمه أعنى أنه يترجم اللفظة العبرية الغريبة بمـــا يجانسها من اللغة العربية وقد رأيت الأوائل رضى الله عنهم وهم القدوة فى كل شـــىء يستشهدون على شرح غريب لغتنا بما حاذاه من غيرها من اللغات) .

---

١ - المقرا : الكتاب المقدس
٢ - التلمود :
٣ - الشيبة : رئيس علماء يهود العراق
٤ - الجاونيم : الأحبار

وبعد هذا الشرح الوافي لمنهجه يعقد مقارنة بين اللسانين العربي والعبـــــــري (وأما اعتلاله وتصريفه ومجازاته واستعمالاته فهو في جميع ذلك أقرب الى لساننا من غيـــره من الألسن يعلم ذلك من العبرانيين الراسخون في علم اللسان العرب النافذون فيه ومـــا أظنهـــم) .

ويبدو أن فكرة المقارنة بين العبرية وسائر اللغات السامية كانت منتشرة في ذلك الوقـت حيث نرى ابن جناح يقول (أفلا تراهم يفسرون كتاب الله من اللسان اليوناني والفارســـي والعربي والأفريقي وغيرها من الألسن . فلما رأينا هذا منهم لم نتحرج عن الاستشهاد وعلى ما لا شاهد عليه من العبراني بما وجدناه موافقا ومجانسا له من اللسان العربي اذ هو أكثر اللغات بعد السرياني شبها بلساننا .

معجم التوراة لجزينيوس :

تتمثل قمة الدراسات العبرية في هذا المعجم الذي قام بوضعه هنريش فردريك فيلهلـم جزينيوس الذي توفي عام ١٨٤٢ م الذي يعتبر بداية عصر جديد في النحو والمعاجـــم العبرية ويعتبرها الكثيرون العمل المعجمي المطلوب لدراسة الكتاب المقدس. (١)

ويعتبر معجمه في الطبعة الأخيرة الموسعة والمنقحة هو أحسن المعاجم لدراســـة الكتاب المقدس .

ولقد تعددت طبعات هذا المعجم العظيم وكانت الاولى عام ١٨١٠ - ١٨١٢ بليبـــزج تحت عنوان

وأشرف جزينيوس بنفسه على الطبعة الثالثة والرابعة من معجمه ١٨٢٨ - ١٨٣٤ . وقـــد أكمل الفصل الأخير من هذا الكتاب بعد وفاة جزينيوس ١٨٤٢ بواسطة رود جر ١٨٥٣-١٨٥٨ .

وقد تعددت طبعات هذا المعجم بعد ذلك وترجم الى اللغة الألمانية والانجليزيـــة

---

١ -

وتعبر طبعة براون ودرايفر ويريد جزء ثم طبعة بول بعد ذلك وأخيرا طبعة كولر من أحسن الطبعات لهذا المعجم وسنتناول معجم جزينيوس هذا من خلال طبعة كولر الذى يعتبر أحدث طبعاته . (١)

يشرح كولر منهجه فى المقدمة ويلخصه فى الآتى :

١ - ترتيب الكلمات أبجديا وهو يرى أن هذا ليس بالمسألة الهينة حيث أن هناك عددا كبيرا من الكلمات يبدأ بادئة وليس من السهل على المبتدئين وغير المتخصصين أن يجدوا أشكال الكلمة الاشتقاقية حيث أن اشتقاق كل كلمة ليس مؤكدا .

٢ - حصر أشكال الكلمة التى ترد وهو يرى أن يشار فقط الى الأشكال التى يمكن أن يشتق منها الأشكال الأخرى بشكل كبير وكذلك الاشكال الغير قياسية مع الاشارة الى النحو كلما بدا ذلك ملائما .

٣ - تحديد المواضع التى ترد فيها الكلمة موضع البحث وان تعذر ذلك بسبب العدد الكثير للمواضع فهو يعطى بيانات عن تردد استخدام الكلمة أو عن المواضع والأماكن وأجزاء العهد القديم التى ترد فيه .

أما عن شرحه الكلمات فهو يرى أن هناك طريقتين :

الأولى - وهى شرح النص فى سياقه وهو ما يسمى عادة بالتفسير وفيه تصبح ترجمة الكلمة صحيحة عندما يكون معناها مفهوما ويناسب السياق .

الثانية - وهى ذات شقين فالأولى طريقة علم اللغة وهو يقصد بها علم فقه اللغة المقارن حيث يرى أن عددا من اللغات تقف جنبا الى جنب مع اللغة العبرية وهذه اللغات هى : العربية والحبشية ،الآرامية ،الأثيوبية ،الأكادية ، والمصرية رغم بعدها ،لكن لها أهميتها بالنسبة للكلمات المستعارة ولكنه يرى أنه من الضرورى أن نأخذ بأعظم قدر من الحرص والحكمة فى مسائل الفقه المقارن .

---

١ -

والثانية وهى علم المعنى وهو يرى أنه بسبب الضمون اللاهوتى وتلك الدراسات الأولى التى قام بها رجال الدين والتى يظن أن النص قد خدم بها الا أنه يجب عن طريق الدراسات الحديثة اكتشاف العلاقات التولدية فى تطور معنى الكلمة وتغيراتها والحصول بناء على ذلك على سلسلة من المعانى مؤسسة على مبادئ تولدية سليمة .

ويطبق كولر منهجى هذا على مواده ومنها كلمة "حج" العبرية فيأتى بمعانيها فى العربية والسريانية والآرامية ثم يسترسل بعد ذلك فيذكر معانيها .

فأولى المعانى التى يذكرها لمادة حج هى المعنى المادى لها الذى هو الرقص فى دائرة ثم هو العيد ثم بعد ذلك العيد المرتبط بالحج ثم هو العيد المرتبط بمناسبة خاصة ثم هو التجمع حول المعبد ثم هى مكان العيد ومنها جاء الحج الى مكة ثم هى بعد ذلك التوجه فى جماعات لقضاء فرض معين ثم هو التوجه فى جماعات لقضاء عبادة الله . وهو فى اعطائه هذه المعانى للكلمة يقرنها بموضعها الذى جاءت فيه كما يشار الى الكتب والدراسات التى تناولت هذه الكلمة بالدراسة أو التى أعطتها تفاسير أخرى .

ومن هذا المنهج الذى اتبعه كولر فى معجمه الذى أخذه عن جزينيوس فانه يتضح لنا أنه أضخم بكثير مما جاء به الراغب وذلك أن الراغب لم يستقر كل معانى الكلمة أو تتبع جميع استعمالاتها ولكنه يشترك معه فى أنه اتبع نفس الترتيب الألفبائى واعطاء أشكال الكلمة الاشتقاقية وأنه قد جعل الأصل المادى وتطور حياة اللفظة هو الأساس الذى سار عليه وكذلك الاستعانة باللغات الأخرى فى توضيح ما غمض .

خاتمة البحث

التوصيات

الخاتمـــــــــــــــة

بعد هذا الاستعراض لأبواب الرسالة الثلاثة والتى خصصنا الأول منها لبيـــــــان حياة الراغب والثانى لشرح منهجه والثالث للمقارنة بينه وبين أقرانه الذين كتبوا كتبا مشابهة له من العلماء المسلمين واليهود نكون قد وصلنا الى نهاية هذا البحث بعد أن اجلينـــا ذلك الغموض الذى أحاط بشخصية الراغب الأصفهانى - تلك الشخصية التى ظلت ولم تنـــل حظها من التأريخ والشهرة كما حظى غيره .

وبرغم قلة المراجع التى تناولته وايضا قلة النقولات التى استطعنا العثور عليها بيـــــن ثنايا هذه القلة القليلة فان ما حصلنا عليه من نتائج يعتبر خطوة كبيرة فى سبيل الكشـــــف عن مزيد للشخصيات المشابهة له وأولى النتائج التى خرجنا بها أنه قد عاش فى القـــــرن الخامس الهجرى وبالتأكيد فى النصف الأخير منه وأن اقامته فى ذلك الوقت كانت ببغـــــداد بعد أن ترك أصفهان سقط رأسه وأن وفاته كانت فى سنة ٥٠٢ هـ وليس كما جاء فى بعـــض المصادر من أنها ٤٠٢ هـ أو ٦٠٢ هـ فقد ثبت أنه قد توفى قبل الزمخشرى المتوفى سنـــــة ٥٣٨ هـ وأيضا الغزالى الذى قيل أنه كان يستصحب معه كتاب الذريعة لنفاسته - وأنـــــه قد عاش فى بيئتين الأولى أصفهان التى يبدو أنه ولد بها وعاش فيها فترة طويلة يقـــــوم بالتدريس فى معاهدها التى كانت منتشرة فيها فى ذلك الوقت ثم انتقل منها فى أواخـــــر أيامه الى بغداد حيث قام بتأليف كتابه المفردات .

ويبدو أنه عند نزوله ببغداد لم يكن قد ذاع صيته أو اشتهر ومن هنا أغفل من رجـــال الطبقات فقد وضح لنا أنه قد أهمل حيث لم يشايع أمراء الدولة أو يتعصب لمذهب على آخر مع عزوفه عن المشاركة فى الأحوال السياسية والاجتماعية كذلك لم يناد م الأمراء أو أصحـــاب الشأن ولهذا وباجتماع كل هذه العوامل ولم يؤرخ له بينما قام مؤرخوا الشيعة بالتأريخ لـــه وعدوه حكيما من الحكماء ويبدو أيضا أن هذا راجع الى أنه كان معروفا فى بيئته التى جـــاء

منها وهى بيئة أصفهان .

أما عن مذهبه فقد كان الراغب شيعيا معتنقا للمذهب الشيعى العدلى - والشيعة العدلية هى فرقة من فرق المذهب الشيعى ولكنها فرقة معتدلة تتقارب مع أهل السنة فى أمور كثيرة أهمها أنها تقر بخلافة الخلفاء الثلاثة وبخلافة بنى أمية أيضا أى أنها من الفرق التى كانت ترضى بالواقع وتساير الحياة على ما هى عليه .

أما عن شخصيته فقد استطعت لمسها من ثنايا كتبه المختلفة ويبدو منها أنه كان مدرسا يظهر هذا واضحا فى مناهج كتبه والقضايا التى قام بدراستها فى كتابيه الذريعة وتفصيل النشأتين وكما يظهر أيضا من تلك التقسيمات التى أتى بها فيها .

كذلك بينا أنه لم يكن رجل دين فقط بل كان رجل دنيا ودين حيث يدل كتابه المحاضرات على هذا .

أما عن منهجه فى كتاب المفردات قد بينت أنه سار على الترتيب الألفبائى المعروف والذى يعد أسهل ترتيب تم الوصول اليه حتى الآن - أما عن تفسيره للكلمات فقد كان ينظر فيه الى الأصل المادى للكلمة ثم يتابع دورانها فى القرآن مع الاتيان بمعانيها المختلفة اذا اختلفت معانيها وفقا للتركيب - كذلك ابتعد الراغب عن الألفاظ الخاصة بالشرع حيث أن لها أمور خاصة ينبغى الحيطة لها والأخذ بها .

أما عن الدوافع التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب فهو ما رآه فى عصره من تخبط فى استخدام اللغة فقد كان يرى أن التفسيرات التى كان القرآن الكريم يفسر بها قد وضعت بلغة جديدة على المجتمع الاسلامى لغة عاصرت حضارات ومجتمعات أصابت دلالاتها حتى أنه قد أصبح ينظر للكتاب الكريم على أنه مصدر من مصادر الفلسفة وكتاب للرموز والاشارات عند الصوفية كذلك لحظ الراغب طبيعة الاختلاف بين الفرق الاسلامية بعضها ببعض ورأى أن كلا منها ينظر الى اللغة من وجهة غير التى ينظر اليها الآخر وأدرك بفطنته اللغوية أن اللغة

له أول وله آخر أى بداية ونهاية وأن البداية هى المعنى المادى وأما النهاية فهى التجريد وأن الذين فسروا النصوص القرآنية منهم من أخذ بالبداية ومنهم من أخذ بالنهاية ـ أمـــا الذين أخذوا بالبداية فهم المجسمون والذين أخذوا بالنهاية هم المبالغون فى التنزيه .

وهو بهذا يكون قد حدد أسباب الاختلاف بين الفرق فى بعض المسائل الاعتقاديـــة وأرجع هذا الاختلاف الى استعمالهم للغة وترجيح وجوه الدلالة فيها .

ومن هنا أيضا اتخذ هذا المنهج فى ترتيب المعانى القرآنية فكان يبدأ بالمعنـــى المادى لينتهى به الى المعنى التجريدى . واذا كان المعجميون قد عنوا بالمادة اللغوية بعدها وهى اللفظة فان الراغب يرى أن الذى يحدد الدلالة ويكشف عن أبعادها المختلفة انما هو الاستعمال ،وعلى هذا فيجب أن يكون المتصدى متمكنا من ضروب الثقافة اللغويـــة كالنحو والاشتقاق والصوفة وهو لهذا يربط النحو باللفظة واستعمالها وبخاصة بيـــن الألفاظ التى تختلف مدلولها باختلاف عللها النحوية كما أنه يربط بين هذه الاستعمالات وبين طبيعة الوجود نفسه وماهية هذا الوجود سواء أكان وجودا يتعلق بالانسان وقدرته كذلـك أو يربط بين اللغة وبين المفكر والمفكر يعتمد بالانسان نفسه المستعمل لهذه اللغة التى يتخذها وعاء لهذا الفكر ولذا نجده فى ترتيبه لمعانى اللفظة يربط بين ثلاثة أشياء :

١ ـ الاستعمال الأول للفظة وهو المعنى الدلالى .

٢ ـ التطور الدلالى للفظة فيما بعد مرتبطا بتطور الانسان مادية ومعنوية .

٣ ـ الاستعمال القرآنى للفظة الواحدة ودوران هذا الاستعمال فى الأماكن المختلفة .

كذلك رأيناه يحدد العلاقة بين اللفظ والمعنى من حيث أن اللفظ دال عليه فنراه فـى حديثه عن العلاقة يقرر أن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية وأنه لذلك لابد من تغيـر مطرد فى دلالة اللفظ حتى يكون بينه وبين المعنى نوع من التكافؤ وهو بهذا فانما يحـــدد الاشتراك فـــــى الذى يؤدى الى غموض الاسلوب أو الاستعمال لذا فهو يرى أن علـــى

اللغوى أن تحدد هـــــذه العلاقة وان تعددت وجوهها حتى يكون الناظر فى الأسلوب على بينة من هذا التعدد وحتى يستطيع أن يدرك بعض ما خفى من دلالات الألفاظ علـــى تلك المعانى ،لذا نراه لا يعترف بالاشتقاق الكبير لهذا التسمح الذى أخذ به ابن جـــنى القائم على الافتراض وتقاليب الكلمة وقد حدد الراغب الألفاظ التى قد تقع فيها الاشتبـــاه باثنين هما الألفاظ المشتركة والألفاظ المتواطئة أو كل يراد بها أحيانا العموم والخصـــوص ولهذا نراه يعنى فى مفرداته بهذا النوع من الألفاظ بيان وجوه الاشتراك وهل هو اشتراك يرجع الى اختلاف اللهجات أو الى التواضع أو الاصطلاح أو النقل عن طريق الشبه .

واذا ما انتهى الأمر باللفظة المفردة الى التركيب الحاصل بين جملة من الألفاظ وهـــو الذى عنى به الراغب من حيث دوران الكلمة فى أماكن متعددة من الاستعمال القرآنـــى واختلف بذلك معناها ضيقا واتساعا فان الراغب يتحدث فى الصدد عن الاشتباه الحاصـــل فى الترتيب وهو الذى أخذ به نفسه فى الترتيب لذلك نرى الراغب فى تحديد معانى الكلمات التى استعملها القرآن فى القصص تكاد تكتفى بالمعنى المادى فقط أى الظاهر تاركا وراء ذلك للمتصدين للقصص القرآنى وهو بهذا فانما يفرق بين التفسير والتأويل الذى يعتبر رائـــدا فيه وأول من وضح تلك العلاقة فالتفسير لديه أعم من التأويل الذى يستخدم فى الكتـــب المقدسة على عكس التفسير الذى يستعمل فى كل النصوص الأدبية فالتأويل هنا أخص مـــن التفسير .

والراغب الأصفهانى فى منهجه هذا فانه يكون قد تفوق على أقرانه ممن كتبوا فـــى الغريب أمثال ابن قتيبة والسجستانى فلم يبلغ أى منهم منهجه أو مادته .

كذلك كان ادراك الراغب الأصفهانى لأصول بعض الكلمات الغريبة والغير عربية أثـــره فى أن نقوم بتلك المقارنة التى عقدناها بين اللغة العربية واللغة العبرية فكلتاهما لغـــة نعم مقدس علاوة على أن أصلهما واحد فكانت مقارنتنا بين منهج الراغب الأصفهانى ومنهـــج

غيره من العلماء اليهود فى تناولهم غريب الكتاب المقدس وأهم نتائج هذه المقارنة مع التأريخ لحركة المعاجم العبرية هو أن تلك النهضة اللغوية لهذه المعاجم قد قامت على أكتاف الثقافة العربية فكما رأينا عند سعديا الفيومى وداوود بن سليمان أنهم اتخذوا اللسان العربى أساسا لتفسير وشرح بعض الألفاظ الغامضة وبالأخص سعديا فى كتابه الذى شرح فيه السبعين لفظة المفردة وكذلك داوود بن سليمان فى كتابه الأجرون الذى قام بشرحه باللغة العربية .

فهل انتهى بحثنا عند هذا مجرد أن أجلينا الغموض عن شخصية الراغب وشرحنا منهجه ؟ فأنا لا أعتقد أن هذا يكفى فليس مجرد شرح تلك الكتب الجديدة يكفى والا فأين الجديد الذى جئنا به - واعتقد أن خير ما يتوج به مثل هذه الأبحاث هو اعادة نشر هذا التراث القديم بصورة جديدة تلائم روح عصرنا الحديث وقد نادى الكثيرون من علمائنا بهذا وبعض المستشرقين وذلك للوضع الذى أصبحت عليه معاجمنا فليس من المعقول أن تظل حتى الآن نعتمد على هذه المعاجم التى ألفت فى القرن الرابع والخامس والسادس لا يضاف اليها شيئا ولا نجدد ما بها لنطلاقا الى ما هو أفضل منها وأيسر للباحث كما حصل للمعاجم العبرية فسلمون بن يروحون قد ألف عام ١١٦٠ م تاموس (عروخ بخيرت) وهو معتبر من قاميس مروان بن جناح وكذلك داوود قمحى (١١٦٠ - ١٢٣٥ م) تراه يأخذ ما تركه حيوج ومروان بن جناح ويخرج قاموسه (فكلل) ويتازعه قاموس مروان بن جناح بالماسورة التى استعان بها .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بظهر تنخوم بروشلمى قاموسه (المرشد الكافى) عن اصطلاحات موسى بن ميمونة فى كتابه (قشنا - تيراه) وأيضا ابراهام بدرشى الذى ألف قاموسه (نهاية الأرب) وغير هؤلاء من أمثال يوسف كمبى فى القرن الرابع عشر ويوسف بن داوود هيونر فى القرن الخامس عشر ويوسف بن يهودا سركو . وأبرز ابطال

النهضة الحديثة للغة العربية يتمثلون فى يوحنا رويشلين الذى وضع سنة ١٥٥٦ م كتابه (أساس اللغة العبرية) فى اللغة اللاتينية وهو كتاب قواعد وقاموس وكذلك الياس الفيتا الذى ألف قاموسا على نمط قاموس داوود قمحى وقاموسا آخر هو (تشبى) وقد عرض فيه لمفردات العهد القديم كما أنه أول قاموس من نوعه وآخر أولئك الذين نهضت اللغة العبرية على اكتافهم هو فلهلم جزينيوس (١٧٨٦ - ١٨٤٢ م) الذى توج تلك الدراسات بمعجم التوراة التى جمع فيها كل ما كتبه السابقون عليه وأضاف اليه الكثير من عنده لذا فقد وجه اليه عناية خاصة حيث تم طبعه أكثر من عشرة مرات كل مرة بطريقة مختلفة عن الأخرى ويشرح مختلف عن الآخر يضاف اليه كل ما يستجد كما حصل فى أحسن طبعاته مثل طبعة دريفر وبول وكولر. تلك النهضة باللغة العبرية لم يكن هناك ما يقابلها باللغة العربية وذلك بسبب الأحوال السياسية والحالة الاجتماعية التى عاشتها الدولة العربية ابتداء من القرن الثامن حيث وقعت المنطقة كلها تحت الاحتلال .

ولكن الآن وقد تغيرت الأوضاع فان تلك النهضة اللغوية التى نشاهدها الآن ممثلة فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية تبشر بخير كبير وستغير حظ اللغتنا العربية .

وقد تغيرت النظرة التى كان ينظر بها الى التراث وأصبح هناك من ينادى بالتجديد واعادة النظر فى أمور تراثنا .

وقد أوضح الأستاذ عبدالله العلايلى فى كتابه " مقدمة لدرس لغة العرب " أنواع المعاجم التى نحتاج اليها بالآتى :

١ - المعجم التاريخى ويبحث على سنة المعاجم القديمة

٢ - المعجم العلمى ويبحث فى الاصطلاحات موزعة حسب الاختصاص .

٣ - المعجم الاصطلاحى وهذا يكون على نسق الكليات لأبى البقاء والتعريفات للجرجانى .

٤ ـ المعجم التاريخى ويبحث فى نشوء المادة وتطوراتها الاستعمالية .

٥ ـ المعجم العلمى وهو يضم جميعها باختصار .

والواقع فان ما ذكره الاستاذ العلايلى ليس هو كل ما نحتاج اليه فما زلنا فى احتياج أولا الى المعاجم المتخصصة قبل عمل هذه المعاجم فلن يتأتى لنا صنعها الا اذا وضعنا لها مقدمات تتمثل فى تلك المعاجم المتخصصة مثل معجم الشعر الجاهلى ومعجم الفترة الأولى من حياة اللغة قبل أن يدخلها اللحن ومعجم خاص بألفاظ القرآن الكريم . وهكذا حتى نستطيع أن نصل بعد ذلك الى تلك المعاجم التى يعتبر من أهمها المعجم التاريخى الذى لن يتأتى لنا وضعه الا باتباع ما ذكرت .

والدكتور حسين نصار فى خاتمة كتابه المعجم يدعو أيضا لوضع معاجم جديدة أهمها تلك التى نادى بها الأستاذ العلايلى وكذلك يدعو الى تقييد المعاجم الأجنبية خاصة معجم الأدباء والفنانين ومعاجم الجيب البسيطة السهلة والمعاجم الوسيطة وفصل المعاجم عن دوائر المعارف .

أما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا فى كتابه القيم الذى وضعه أخيرا "كلام العرب" (وبعد فلسنا بحاجة الى أن ننبه الى ما نعانيه من نقص فى المعاجم فنحن فى تلك الناحية نعيش فى العصور الوسطى لا نخرج منها فمنذ القاموس المحيط للفيروزابادى ولسان العرب لابن منظور ونحن كما أشرنا وأشار اليه غيرنا نكرر ما جاء فيهما مرتبا ترتيبا آخر أو مختصرا أو مطولا ... ولكن الجوهر واحد وهو أن صناعة المعاجم عندنا فى أزمة وهى بعيدة كل البعد عن مسايرة التقدم الفكرى والحضارى فى العالم العربى الحديث) لذا فهو يرى أن المعجم العربى الحديث ما يزال بحاجة الى جهود متضافرة بين الادباء والعلماء والمهندسين والأطباء واللغويين وغيرهم كما يحتاج الى اهتمام باللغة نفسها من الصحافة اليومية والاسبوعية فى العالم العربى اذ بدون الوعى اللغوى العام لا يستطيع أى تنظيم

مهما بلغ من القوة والدقة أن يصيب الهدف باحكام . وأما عن المعاجم الحديثة فيقـــــول (كل هذه المعاجم ليست الا محاولة لاظهار القديم في ثوب جديد دون أن نضيف شيئـــا جوهريا الى تلك الصناعة) ويضع استاذى الدكتور حسن ظاظا منهج المعجم الأبجدى كالآتى :

١ ـ مادة لغوية مأخوذة من النصوص .

٢ ـ ترتيب أبجدى واضح دقيق .

٣ ـ ذكر المعنى الرئيسى للمادة أولا ثم المعانى الفرعية .

٤ ـ احكام ضبط النطق الألفاظ وهجائها ورسمها .

٥ ـ التنبيه على الفصيح والمعرب والدخيل والمولد .

٦ ـ عدم الالتجاء الى التصوير والرسم التوضيحى الا فى حدود .

٧ ـ أن يكون الشرح واضحا .

٨ ـ عدم شرح لفظتين فى موضعين من المعجم كل منهما بالأخرى .

٩ ـ اختيار المؤلف للفظ المناسب أو المصطلح لكلمة غير موجودة فى اللغة .

١٠ ـ المصطلحات العالمية توضع فى حاشية بذيل الصفحة لزيادة ايضاح الكلمة المعربة .

وهذا المنهج الذى وضعه أستاذنا الدكتور حسن ظاظا ينطبق على أحدث المعاجـــم العالمية الموجودة بين أيدينا الآن كمعجم أكسفورد التاريخى وهو أيضا منهج لا يمكـــــن تطبيقه بدون عمل القواميس التخصصية أولا وهو ما يكلف به طلابه بالدراسات العليا مـــــن دور لغة النصوص وتحليلها وكذلك لغة الشعراء والأدباء .

وبعد ،فان هذه الآراء التى نادى بها أولئك الدارسون المتخصصون وما يتصـــــوره أستاذى الدكتور حسن ظاظا لنهضة اللغة هى التى دفعتنى الى التفكير فى تطويـــــر معجم المفردات للراغب حتى يرتقى الى مستوى المعجم العلمى الحديث كما تم بالنســـــة لمعجم التوراة الذى وضعه فلهلم جزينيوس .

وأول من التفت الى وضع معجم قرآنى خاص بالألفاظ القرآنية هو المرحوم الأستاذ أمين الخولى رحمه الله فى مادة تفسير بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان دراسة القرآن فى نفسه فهو يرفض الاستعانة بمعاجمنا العربية لفهم دلالة الألفاظ وذلك لجمعها أشتاتا متفرقة لذا فانه بالنسبة لفهم دلالة الألفاظ القرآنية يضع منهجا أمام مفسر القرآن حين يبتغى المعنى الأول لألفاظه الى أن تملك قاموسا اشتقاقيا تتدرج فيه دلالات الألفاظ وتتمايز فيه المعانى اللغوية للفظ الذى يراد تفسيره وأهم نقاط هذا المنهج :

١ - النظر فى المادة اللغوية للفظ .

٢ - النظر فى تدرج المعانى اللغوية للمادة نظرة ترتبها على الظن الغالب فيقدم الأسبق الأقدم منها على السابق على أن يكون الناظر ملما أمكن بأحدث الدراسات اللغوية عن أصل اللغات والصلة التى بينها .

٣ - بعد البحث عن معنى اللفظة ينتقل للبحث عن معناها الاستعمالى لتتبع ورودها وهل كانت وحدة أطردت فى عصور القرآن المختلفة ومناسبات متغيرة وان لم يكن الأمر كذلك فما معانيها المتعددة التى استعملها القرآن .

وهو يرى أنه بتطبيق هذا المنهج على كتاب الراغب الذى هو نواة تقبل من بعده الأجيال يكمل هذا القاموس القرآنى .

ومن هذا المنهج الذى وضعه المرحوم أمين الخولى رحمه الله بنيت فكرتى عن تطوير معجم المفردات للراغب الأصفهانى والتى ألخصها فى الآتى :

١ - تزويد القاموس بفهرست اعلامى بأسماء الأشخاص الذين ذكرهم الراغب فى الكتاب وكذلك أسماء الكتب التى نقل عنها ولم يذكرها .

٢ - تزويد القاموس بفهرس لآيات القرآن التى قام الراغب بالاستشهاد بها وعدد مرات ورودها .

٣ ـ الاشارة الى عدد استعمالات اللفظة فى القرآن واعطائها فى آخر المادة برمـــوز واشارات .

٤ ـ الاشارة الى المباحث التى قام بها آخرون فى مجال الدراسات القرآنية أمـــام اللفظة المرتبطة لهذه المباحث .

٥ ـ اعطاء كل مادة دلالة صوتية .

٦ ـ الاشارة الى اللهجات واللغات العربية المرتبطة للفظة .

٧ ـ اعادة دراسة مواد المعجم من جديد وطرحها على الدراسات اللغوية الساميـــة المقارنة لتحديد الدخيل والمعرب فمثلا جاء الراغب بمادتين من أصل واحد وهما : مـادة "ملك" ومادة "ألك" وكان الأجدر به توحيدهما أو الاشارة الى واحدة منهما فى الأخـرى كذلك فان الراغب لم يشر الى أصل هذه الكلمة السامى الذى يتفق ومعناها فى العربية . كذلك أيضا فى مادة "بلس" فلم يشر الى اللبس الذى هو الحيرة وعدم الوضوح أما ذكـــره ابليس على أنه من بلس فالواقع فان اصلها يونانى هو

وهو فى شرحه كذلك لهذه الكلمة لم يستعن بأى مرويات أو معاجم أخرى لزيادة المعـــنى ايضاحا ولم يقم بالتفريق بين أسماء ابليس والعفريت والجن التى وردت فى القرآن ـ وأيضـا فى كلامه عن الشيطان فى مادة شطن فلم يذكر أصلها السامى الذى هو

تمـــت بحمـــد اللـــه

امراجع

المراجع العربية

د . ابراهيم أنيس

دلالة الألفاظ ،ط الثانية ١٩٦٣ م

ابن الأنبارى :

نزهة الألبـــاب

ابن تيميـــة :

رسائل ابن تيمية - مجموعة رسائل طبعة فى مصر ١٣٢٧ هـ

ابن جـــنى :

سر صناعة الأعراب ،ط أولى ١٩٥٤م

الخصائص ،تحقيق الأستاذ النجار ط ،القاهرة ١٩٥٦ م

ابن حزم الأندلسى :

الفصل فى الملل والأهواء والنحل ،مطبعة صبيح ١٣٤٧ هـ

ابن الخـــراط :

معجم غريب القرآن والحديث

ابن فـــارس :

معجم مقاييس اللغة ،تحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون مصر ١٣٦٦ هـ

ابن قتيبـــة :

تأويل مشكل القرآن ،تحقيق السيد أحمد صقر ط . الحلبى ١٩٥٤ م

ابن محارب الكنانى :

القرطـــبى ،ط الاولى الخانجى ١٣٥٥ هـ

ابن منظـــور :

لسان العـــرب

أحمد عطيـــة :

القاموس الاعلامـــى

الأزهـــرى :

مقدمة تهذيب اللغة ،ط أولى ١٩٥٦ م

اسماعيل باشا بغدادى :

هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين

ط استانبول ١٩٥٢ م

أغابرزك الطهرانى :

الذريعة الى تصانيف الشيعة ،ط الأولى

الآمـــدى :

أصول الأحكـــام

الباقلانـــى :

اعجاز القرآن ،تحقيق السيد أحمد صقر - مجموعة ذخائر العرب(١٢)

بروكلمـــان :

تاريخ الأدب العربـــى

البستانـــى :

دائرة المعارف البستانـــى

البيهقى (ظهير الدين) :

تتمة صوان الحكمة ،ط . لاهور ١٣٥١ هـ

د . تمام حسان :

مناهج البحث في اللغة، ١٩٥٥ م

حاجي خليفة :

كشف الظنون

د . حسن ظاظا :

مكتبة الدراسات اللغوية ١٩٧١

اللغة والانسان

الساميون ولغتهم

كلام العرب

د . حسين نصار :

المعجم العربي ،نشأته وتطوره دار الكتاب العربي ١٩٥٦ م

الخوانساري (محمد باقر) :

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ،ط الثانية

داوود بن ابراهيم القاسي :

جامع الألفاظ ،تحقيق سالمون سكوس،ط. فيلادلفيا

ج ١ ١٩٣٦ ،ج ٢ ١٩٤٥ م

الراغب الأصفهاني :

تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ،الطبعة الحميدية بقللة

الحمرية ١٣٢٢ هـ .

الذريعة الى مكارم الشريعة ،مطبعة الوطن ١٣٠٨ هـ

محاضرات الأدباء ،المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٦ هـ

المفردات في غريب القرآن بهامش كتاب النهاية في غريب الحديث

لابن الاثير ١٣٤٠ هـ

المفردات في غريب القرآن ،ط. المصطفوى طهران

المفردات في غريب القرآن ،ط. الحلبي ١٣٢٤ هـ

المفردات في غريب القرآن ،تحقيق سيد كيلاني

المفردات في غريب القرآن ،مخطوطات بأرقام ٢١٤ لغة ١١٩، ١٢٠، ٧٢٤٩ .

مقدمة التفسير (بهامش تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار المعتزلي ،٧٠. الجمالية ١٣٢٩ هـ .

الربعي : (عيسى بن ابراهيم)

نظام الغريب ،مطبعة هندية ط. الأولى

الزركلي :

قاموس الأعلام

سركيس (يوسف) :

معجم المطبوعات العربية ،١٩٢٨ م

السيوطي : بغية الوعاة ،الخانجي

الاتقان في علوم القرآن ،ط. حجازي

المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،ط. عيسى الحلبي

الشافعي : (الامام)كتاب الرسالة ،المكتبة الحجازية .

الشهرستاني :

الملل والنحل (بهامش كتاب الفصل لابن حزم ط . صبيح ١٣٤٧ هـ)

صبحي الصالح :

فقه اللغة ،دمشق

طاشر كبر زادة :

مصباح السعادة ومصباح السيادة

العاملـــــى (محسن الأمين)

أعيان الشيعة ،الطبعة الاولى ،مطبعة الانتقان ١٩٤٨ م

د . عبدالله درويـــــش :

المعاجم العربية ،مكتبة الأنجلو

عبدالله العلايلـــــى :

مقدمة لدرس لغة العرب ،المطبعة العصرية

د . على عبدالواحـــــد :

فقه اللغـــة ،الطبعة الثانية ١٩٤٤ م

فخر الدين الـــرازى :

أسرار التقديس ،مطبعة كروستان ١٣٢٨ هـ

فيشـــــــــــر :

المعجم اللغوى التاريخى ،الطبعة الأولى - مجمع اللغة العربية ١٩٦٧ م

الفيروزابادى :

قاموس المحيـــط

الكافروخـــــى :

محاسن أصفهان ،مطبعة عيشـــى

محمد خلف اللـــــه :

ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ذخائر العرب(١٦)

محمد خلف اللـــــه :

تاريخ وكتـــاء العرب

محمد كـــرد علـــى :

تاريخ حكماء الاسلام ،دمشق ١٩٤٦ م

كنـــوز الاجداد ،دمشق

د . محمود السعران :

علم اللغـــة ،ط . المعارف ١٩٦٢ م

مـــراد فـــرج :

ملتقى اللغتين العبرية والعربية ،المطبعة الرحمانية ١٩٣٠ م

مرمرجى الدومنكـــى (الأب)

المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية العامة ،

القدس ١٩٣٧ م

مروان بن جنـــاح :

اللمـــع ،باريـــس ١٨٩٦ م

د . النشار (على سامى) :

نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ،جـ ١ ،جـ ٢

ياقـــوت :

معجم البلدان ،ط . ليبزج ١٨٨١ م

معجم الادباء ،تحقيق مرجليوث

دائرة المعـــارف الاسلاميـــة

فهرس الكتاب

فهرست الكتاب

المدخل والمقدمة		٧
الباب الاول : الراغب الاصفهانى		٤١
المدخل		٤٣
الفصل الاول	نسبه	٤٧
الفصل الثاني	حياته ومولده	٥٥
الفصل الثالث	شخصية الراهب	٥٩
الفصل الرابع	مذهبـه	٦٣
الفصل الخامس	اهم اعماله	٧٧
الباب الثانى :	كتاب المفردات	٨٣
المدخل		٨٥
الفصل الاول	نسخ الكتاب	٨٩
الفصل الثانى	دوافع التأليف	٩٣
الفصل الثالث	منهج الراغب	١٠١
الفصل الرابع	موقفه من المشكلات اللغوية والدينية	١١١
الفصل الخامس	الراغب والفقه والتشريع	١٢٥
الباب الثالث :	كتاب المفردات -دراسة مقارنة	١٣٩
الفصل الاول	الغريب ومناهج العلماء المسلمين	١٤١

الفصل الثانى	اللغة العربية والعبرية – دراسة مقارنة	١٤٩
الفصل الثالث	المعاجم العبرية	١٥٧
الفصل الرابع	مقارنة بين الراغب والعلماء اليهود	١٦٣
الخاتمة		١٦٩
المراجع		١٨١
الفهرس		١٨٩